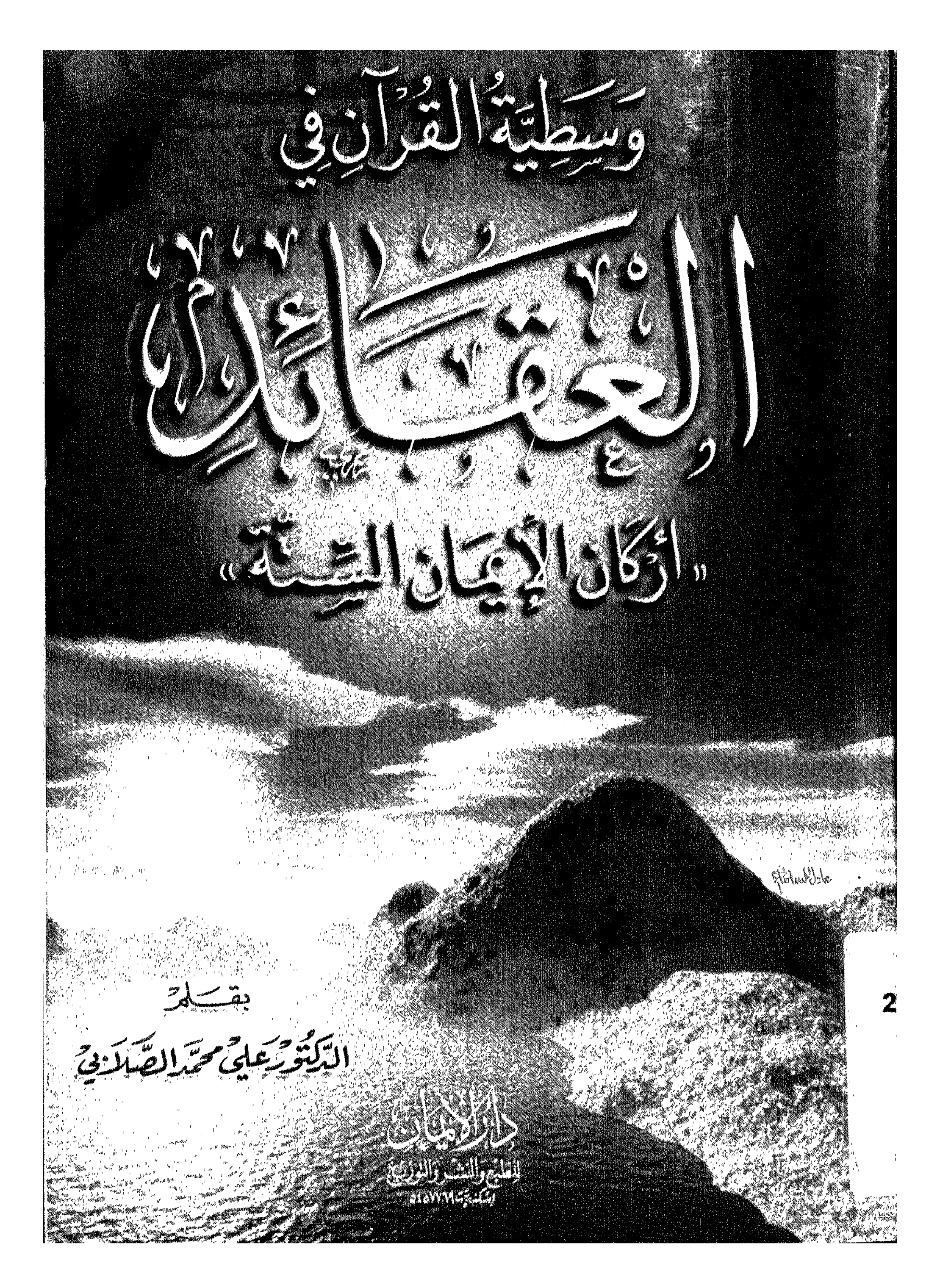

وسطية القرآن في
العقائد
«أركان الإيمان الستة»
بقلم
الدكتور علي محمد الصلابي
دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع

وسطية القرآن في العقائد

أركان الإيمان الستّة

بقلم الدكتور
عليّ محمد الصّلابي

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت:٥٤٥٧٧٦٩ـ٥٤٤٦٤٩٦

رقم الإيداع ٩١٠٩ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى

977 - 331 - 050 - 2

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ ش خليل الخياط - مصطفى كامل
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

مقدمة :

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله عز وجل ، وخير الهدي هدي محمداً ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ... وبعد :

هذا الكتاب [**وسطية القرآن الكريم فى العقائد**] أصله جزء من كتاب [الوسطية فى القرآن الكريم] ، وقد فُصل عنه لتعم الفائدة ويسهل الإطلاع على أركان الإيمان الستة بسهولة ويسر ، واقتناعاً منّي بأهمية هذا الموضوع ومسيس الحاجة إليه ، فقد قمت بإفراد هذا الموضوع [**وسطية القرآن الكريم فى العقائد**] ، فالقرآن الكريم جاء مقرراً لمنهج العقيدة الوسطية فى أبواب الاعتقاد والعبادات ، والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن

المنكر ، وغيرها من الأبواب والمجالات وبياناً لهذه الحقيقة وتأصيلاً لها ، قمت بتقسيمه إلى سبعة فصول :

الفصل الأول : في القرآن يقرر منهج الوسطية ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : التعريف بالقرآن .

المبحث الثاني : في وسطية القرآن في العقيدة .

الفصل الثاني : في وسطية القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته ويشتمل على أربعة مباحث .

المبحث الأول : موقف أمة اليهود .

المبحث الثاني : موقف النصارى .

المبحث الثالث : موقف المسلمين .

المبحث الرابع : مفهوم الإيمان كما جاء في القرآن .

الفصل الثالث : الملائكة ويشتمل على مبحثين .

المبحث الأول : صفات الملائكة الخلقية .

المبحث الثاني : علاقتهم مع الله والإنسان والكون وعددهم .

الفصل الرابع : في الكتب السماوية ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تحريف اليهود وتزويرهم .

المبحث الثاني : تحريف النصارى للإنجيل .

المبحث الثالث : وسطية القرآن بين الكتب السماوية .

الفصل الخامس : وسطية القرآن في أنبياء الله ورسله ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : موقف اليهود من أنبياء الله ورسله .

الخلاصة :

ودونت فيها أهم النتائج التى وصلت إليها فى هذا البحث ، وأسأل الله العلى العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم .

وأسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يغفر لى أى خطأ أو زلل وقعت فيه ، إنه سميع قريب .

كتبه

علي محمد محمد الصلّابي

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

الفصل الأول

القرآن يقرر منهج الوسطية

تمهيد : نزل القرآن الكريم هداية للناس ونوراً، يخرج به الله من شاء من الظلمات إلى النور، ولزوم منهج الوسطية عين الاستقامة والهداية والصراط المستقيم، ولذلك فقد جاءت الآيات مستفيضة ترسم منهج الوسطية وتدل عليه. والوسطية منهج متكامل شامل غير محصور في ركن من الأركان، لا في جزئية من الجزئيات ولا في حكم من الأحكام، ولا في أصل من الأصول، فالإسلام كله وسط، وهذه الأمة هي أمة الوسط : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾.

ولذلك جاء القرآن مقرراً لمنهج الوسطية في أبواب الاعتقاد، والعبادات والحكم والتحاكم، وفي باب الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من الأبواب والمجالات وبياناً لهذه الحقيقة وتجلية لها، سنعيش مع كتاب الله متأملين بعض ما ورد فيه، تأكيداً لهذه الحقيقة وتأصيلاً لها، وقبل أن أشرع في الهدف المطلوب، ومعنى المنهج في اللغة وفي الإصطلاح. سأقف مع فاتحة الكتاب حيث إنها من أولها إلى آخرها تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها.

المبحث الأول

التعريف بالقرآن الكريم

أولا : معنى القرآن في اللغة :

القرآن من مادة قرأ، ومنه قرأت الشيء فهو قرآن : أي جمعته، وضممت بعضه إلى بعض، فمعناه : الجمع والضم. ومنه قولهم : ما قرأتْ هذه الناقة سَلىً قطُّ، وما قرأت جنيناً، أي لم تضم رحمها على ولد[١] .

قال أبو عبيدة[٢] رحمه الله : (... وإنما سمي قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها وتفسير ذلك في آية القرآن ، قال الله تعالى : ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾. (القيامة : ١٧) مجازه : تأليف بعضه إلى بعض...) ثم قال : وفي آية أخرى : ﴿فإذا قرأت القرآن﴾. (النحل : ٩٨) مجازه : إذا تلوت بعضه في إثر بعض، حتى يجتمع، وينضم بعضه إلي بعض، ومعناه : يصير إلى معنى التأليف والجمع، ثم استشهد على هذا المعنى، يقول عمرو بن كلثوم[٣] :

ذِرَاعَيْ حُرَّةٍ أدماءَ بِكْرٍ ... هِجَانِ اللونِ لم تقرأ جنيناً[٤]

١- انظر : الصحاح للجوهري، مادة قرأ : ١/ ٦٥.

٢- هو معمر بن المثنى التيمى مولاهم البصري، النحوى، صاحب التصانيف، ولد سنة ١١٠هـ ومات سنة ٢٠٩ هـ وقيل ٢١٠انظر : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٤٥.

٣- هو عمرو بن كلثوم التغلبي من أصحاب المعلقات السبع ومن كبار شعراء الجاهلية انظر : شرح المعلقات السبع : ١٨٠.

٤- انظر : شرح القصائد السبع الطوال، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري : ٣٨٠.

أي لم تـضم في رحـمها ولـداً قط[١] فسـمى القرآن قـرآنا، لأنه جـمع القصص، والأمـر والنهي، والوعد والوعـيد، والآيات والسور : بعـضها إلى بعض.[٢]

ويذكر أبو بكـر الباقلاني[٣] : أن القرآن يكون مصـدراً واسماً : مصدرا كما في قوله تعالى : ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾. (القيامة : ١٧) وإسما كما في قـوله تعـالى : ﴿وإذا قرأت الـقرآن جعـلنا بيـنك وبين الـذين لا يؤمـنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾. (الإسراء : ٤٥).

ويروى عن الشافعي رحمه الله : أن القـرآن إسم علم لكتاب الله، غير مشتق : كالتوارة، والإنجيل.[٤]

قال القرطبي رحمه الله : (والصحيح الاشتقاق في الجميع)[٥]. أي في القرآن والتوراة والإنجيل.

معنى القرآن في الاصطلاح :

القرآن الكـريم هو اسم لكلام الله تـعالى، المنزل على عـبده ورسوله : محمد ﷺ، وهو إسم لـكتاب الله خاصة، ولا يسمى به شـيء غيره من سائر

١- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمرة التيمي : ١/١-٣.

٢- انظر : لسان العرب ، كتاب (أ-ب) فصل الهمزة، باب قرأ : ١٢٨/١.

٣- هو إمام المتكلـمين ورأس الأشاعرة أبوبكر محمد بـن الطيب بن محمد القاضـي المعروف بابن الباقلاني البصري المالكي صاحب المصنفات وكان له بجامع المنصور حلقه عظيمة ، وكان ورده في الليل عشرين ترويحة في الحضر والسفر فإذا فرغ منها كتب خمساً وثلاثين ورقة من تصنيفه ويعد من أكبر الأشاعرة توفي سنة : ٤٠٣هـ انظر : شذرات الذهب : ١٦٧/٣.

٤- انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٢٩٨/٢.

٥- نفس المرجع السابق : ٢٩٨/٢.

الكتب[1]، وإضافة الكلام إلى الله تعالى إضافة حقيقية، من باب إضافة الكلام إلى قائله.

ولما ظهر الخوض في صفات الله تعالى، وفي كلام الله خاصة، من قبل الزنادقة، وفرق المبتدعة، إحتاج أهل السنة إلى تعريف القرآن تعريفاً يظهرون فيه معتقدهم في صفات الله تعالى عامة، وفي صفات الكلام خاصة، ومنه القرآن، مخالفين بذلك أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهم.

فقال أبو جعفر الطحاوي[2] رحمه الله: (وإن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحيّاً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه، فزعم أنه كلام البشر فقد كفر)[3].

ثانياً: التعريف بالمنهج في اللغة والإصطلاح:

أ- معنى المنهج في اللغة:[4]

المنهج من مادة نهج، ينهج نهجاً، وهو الطريق البين الواضح، ويطلق على الطريق المستقيم، والمنهج، والمنهاج والنهج: بمعنى واحد. وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾. (المائدة: ٤٨). قال ابن

١- المرجع السابق: ٢/٢٩٨

٢- هو الحافظ الفقيه أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي الأزدي المصري، شيخ الحنفية في عصره في مصر، ونسبته إلى طحا، قرية بصعيد مصر توفي عام ٣٢١ بمصر انظر: البداية والنهاية: ١١/ ١٧٤

٣- شرح الطحاوية: ١٢١-١٢٢

٤- انظر لسان العرب باب الجيم، فصل النون: ٢/ ٣٨٣

عباس رضي الله عنهما : سبيلاً وسنة.[1] وهو مروي عن مجاهد، وعكرمة والحسن البصري، وغيرهم وروي عن ابن عباس سنة وسبيلاً، ورجح ابن كثير رحمه الله التفسير الأول، لظهوره في المعنى ومناسبته[2]. وقالَ الحافظ ابن حجر رحمه الله : (والمنهاج : السبيل، أي الطريق الواضح).[3] وتفسير ابن عباس الأول هو المختار.

ب- معنى المنهج في الاصطلاح :

المنهج هو الطريق المؤدي إلى التعريف على الحقيقية في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، والتي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة[4] وبعبارة أوجز : هو القانون أوالقاعدة التي تحكم أي محاولة للدراسة العلمية، وفي أي مجال[5]، ومن ثم تختلف المناهج باختلاف العلوم التي تبحث فيها، فلكل علم منهج يناسبه، ومع وجود حد مشترك بين المناهج المختلفة، وقد تتعاون - وهو الغالب - مجموعة من المناهج لخدمة ومعالجة فن واحد.[6]

سورة الفاتحة تقرر منهج الوسطية :

إن أمّ الكتاب تقرر منهج الوسطية من أولها إلى آخرها وأظهر آية فيها شاهدة بذلك هي قوله تعالى : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (الفاتحة : ٦)

١- صحيح البخاري مع الفتح ، كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس ١/ ٦٠.

٢- انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ١٢٠.

٣- أنظر فتح الباري، كتاب الإيمان، باب بني الإسلام ١/ ٦٤.

٤- انظر : العلم والبحث العلمي، لسحين رشون ١٤٣- ١٤٥.

٥-٦- انظر منهج البحث العلمي عند العرب، لجلال موسى ٢٧١.

وما بعدها.

وهذه الآية صريحة في تحديد المنهج الوسط، ذلك أنها بينت أن هذا الصراط هو صراط الذين أنعم الله عليهم. قال الطبري رحمه الله (أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وكذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول الشاعر.

أميرُ المؤمنين على صِراطٍ   إذا اعوجَّ المواردُ مُستقيم

قال ابن عباس رحمه الله : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ يقول ألهمنا الطريق الهادي، وهو دين الله الذي لا عوج له[1] ثم قال : وكل حائد عن قصد السبيل وسالك غير المنهج القويم فضال عند العرب، لإضلاله وجه الطريق.[2]

وقد بين الله لنا أن الصراط المستقيم هو منهج الوسط، حيث قال واصفا الصراط المستقيم ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. (الفاتحة : ٧) ومنهج المغضوب عليهم يمثل التفريط، بينما يمثل منهج الضالين الإفراط، فهما منهجان دائران بين الغلو والجفاء.

قال ابن كثير رحمه الله (غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق).[3]

١- انظر تفسير الطبري ١/ ٧٣، ٧٤.

٢- المرجع السابق ١/ ٨٤.

٣- انظر تفسير بن كثير ١/ ٢٩.

وبهذا يتبين لنا أن هناك ثلاثة طرق طريق الذين أنعم الله عليهم ، وطريق المغضوب عليهم، وطريق الضالين، والله أمرنا بالالتزام بسبيل الذين أنعم الله عليهم، لأنه هوالصراط المستقيم، وهو منهج وسط بين سبيلين منحرفين، وهما سبيلاً اليهود والنصارى، وكل طريق منحرف عن منهج الصراط المستقيم فله حظ من أحد هذين السبيلين. ولأن الاستقامة تعنى الوسطية كما تبينها آية الفاتحة، وكما وضحت ذلك في ملامح الوسطية جاءت الآيات متعددة تدعو إلى الإستقامة بأساليب متعددة وألفاظ متقاربة وهي تدور بين الخبر والإنشاء. ومن هذا المنطلق، وبعد أن تقرر أن طريق الإستقامة هو طريق الأمة الوسط، فإن كل آية وردت في الاستقامة فهي آية في تحقيق الوسطية والدعوة إليها والآيات في هذا الباب كثيرة جداً أذكر بعضاً منها دلالة على المراد، وبياناً لهذا المنهج.

قال سبحانه ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا﴾. (هود : ١١٢) وقال ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم﴾. (الشوري : ١١٥) فقوله تعالى : ﴿ولا تطغوا﴾ بعد أن أمر بالاستقامة، والطغيان وهو مجاوزة الحد[1] وهو خروج عن منهج الوسطية إلى الانحراف عن السبيل.

وفي الآية الثانية : قال : ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ واتباع الهوى خروج عن الاستقامة، وانحراف عن منهج الوسط وتواصل الآيات في هذا الشأن، ففي سورة البقرة ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾. (البقرة : ١٤٢)

٢- انظر تفسير القرطبي ١٠٧/٩.

وفي آل عمران ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ وفي الأنعام ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾. (الأنعام : ١٥٣) وفيها ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً﴾. (الأنعام : ١٦١) وفي النحل ﴿وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾. (النحل : ٧٦).

وفي الزخرف ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم﴾. (الزخرف : ٤٣) وفي سورة الملك ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾. (الملك : ٢٢) إلى غير ذلك من الآيات، حيث إن كل واحدة منها دالة على أن الصراط المستقيم هو الطريق الذي أمرنا باتباعه واجتناب ماعداه؛ لأنه هو طريق الحق والعدل والوسط، وماعداه طريق الضلال والغواية والانحراف عن الصراط المستقيم، وها هو الشيطان يعلن هذه الحقيقة قائلاً كما ذكر الله في سورة الأعراف : ﴿فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾. (الأعراف : ١٦) وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾. (الأنعام : ٢٩).

وفي سورة التكوير ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم﴾. (التكوير : ٢٧-٢٨) وهذه الآية نص في أن القرآن كله دعوة للاستقامة والسير على المنهج الحق، قال القرطبي (إن هو) يعني القرآن ﴿إلا ذكر للعالمين﴾ أي موعظة وزجر : ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ أي يتبع الحق

ويقيم عليه.[1]

ومما سبق يتضح لنا أن سورة الفاتحة وضعت القاعدة والمنطلق ورسمت المنهج وحددت معالمه ثم جاءت الآيات بعد ذلك مقررة لذلك وداعية له.

١- انظر : تفسير القرطبي : ١٩/٣٤٣.

المبحث الثاني
وسطية القرآن في العقيدة

أولاً : التعريف بالعقيدة :

أ- العقيدة لغة (من العقد، وهو الربط والشدة بقوة، منه الإحكام والإبرام، والتماسك والمراصة والإثبات والتوثق).[1]

أ- العقيدة في الاصطلاح : كلمة العقيدة لم تكن موجودة في الكتاب والسنة، ولا في أمهات المعاجم، وإن أول من تم الوقوف على ذكره لجمعها (عقائد) هو القشيري[2] سنة ٤٣٧هـ في كتاب الرسالة وهي كلمة مولدة لم تكن في الصدر الأول.[3]

وقد عرفها الدكتور ناصر العقل[4] فقال : (الإيمان الجازم بالله وما يجب له في الوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره، وشره، وبكل ماجاءت به النصوص الصحيحة في أصول الدين وأمور الغيب وأخباره وما أجمع عليه السلف الصالح

١- انظر لسان العرب مادة عقد، فصل العين المهمله ٣/ ٢٩٥.

٢- هو أبوالقاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري صاحب الرسالة والتفسير وغيرهما صحب أبا علي الدقاق وغيره، أخذ الفقه فأتقنه، وأخذ الأصول على ابن فورك والاستاذ أبي إسحاق ولد سنة٣٧٧هـ وتوفي سنة ٤٦٥ هـ انظر : تاريخ بغداد ١١/ ٨٣، ترجمته رقم ٥٧٦٣.

٣- انظر معجم المناهي اللفظية للشيخ بكر أبوزيد : ٢٤٢.

٤- هو ناصر عبدالكريم العقل من علماء العقائد بنجد تحصل على درجة الدكتوراه واشرف على رسائل علمية في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود.

والتسليم لله تعالى في الحكم والأمر والقدر والشرع ولرسوله ﷺ بالطاعة والتحكيم والاتباع).[1]

يشمل التوحيد، والإيمان، والإسلام، والغيبيات، والنبوات، والقدر، والأخبار، وأصوله الأحكام القطعية، وسائر أصول الدين، والاعتقاد، ويتبعه الرد على أهل الأهواء والبدع وسائر الملل والنحل والمذاهب الضالة، والموقف منهم ومن مسميات هذا العلم، العقيدة، والتوحيد، والسنة، وأصول الدين.

والعقيدة في الإسلام تقابل الشريعة، إذ الإسلام عقيدة وشريعة تعني التكاليف العملية التي جاءت في القرآن والسنة النبوية في العبادات والمعاملات. والعقيدة هي أمور علمية يجب على المسلم أن يؤمن بها : لأن الله أخبرنا بها بطريق كتابه ، أو بطريق وحيه إلى رسوله ﷺ وأصول العقائد التي أمرنا الله باعتقادها هي التي حددها الرسول ﷺ في حديث جبريل المشهور بقوله :«الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الأخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى».[2] فالعقيدة في ديننا هي التي تدور حول قضايا معينه، هي التي أخبرنا بها الله ورسوله، وليست اعتقاد أي شيء، وحتى تصبح هذه عقيدة لابد أن تصدق بها تصديقاً جازماً لاريب فيه، فإن كان فيها ريب أوشك كانت ظناً لا عقيدة.[3] والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾. (الحجرات : ١٥) وقوله تعالى : ﴿الم، ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾. (البقرة : ١-٢) وقال :

١- مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة : ٩.

٢- مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الإيمان بالقدر ١/٣٨، رقم ٨.

٣- انظر : العقيدة في الله لعمر الأشقر : ٩- ١٠.

﴿إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾. (آل عمران : ٩) وذم المشركين المرتابين ﴿وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾. (التوبة : ٤٥) والمسائل التي يجب اعتقادها أمور غيبية، ليست مشاهده منظورة، وهي التي عناها الله بقوله عندما مدح المؤمنين : ﴿يؤمنون بالغيب﴾ .(البقرة : ٣) فالله غيب وكذلك الملائكة واليوم الآخر، أما الكتب والرسل فقد يتبادر أنها تشاهد وتنظر، ولكن المراد هو الإيمان بنسبتها إلى الله أي كون الرسل مبعوثين من عندالله، وأن الكتب منزلة من عند الله، وهذا أمر غيبي.

ثانياً : العقيدة الصحيحة والعقيدة الفاسدة.

العقيدة ليست مختصة بالإسلام، بل كل ديانة أو مذهب لابد لأصحابه من عقيدة يقيمون عليها نظام حياتهم، وهذا ينطبق على الجماعات والأفراد والأمم والشعوب، والعقائد منذ بدء الخليقة إلى اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهي قسمان :

الأول : يمثل العقيدة الصحيحة، وهي تلك العقائد التي جاءت بها الرسل الكرام في أي زمان ومكان، وهي عقيدة واحدة، لأنها منزلة من العليم الخبير الحكيم العزيز.

والقسم الثاني : يشمل العقائد الفاسدة على كثرتها وتعددها، وفسادها ناشيء من كونها نتاج أفكار البشر ومن وضع مفكريهم وعقلائهم، وعلمهم محدوداً ومقيداً بقيود بشرية متمثلة في عادات وتقاليد وأفكار.

وأحياناً يأتي فساد العقيدة من تحريفها ، وتغييرها وتبديلها ، كما هو الحال بالنسبة للعقيدة اليهودية والنصرانية في الوقت الحاضر، فإنهما حرفتا

منذ عهد بعيد، ففسادهما كان من هذا التحريف، وإن كانت عقيدتها سليمة الأصل.[1]

ثالثاً : أين العقيدة الصحيحة اليوم؟

العقيدة الصحيحة لا توجد إلا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأنهما محفوظتان لحفظ الله لهما قال تعالى : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾. (الحجر : ٩) والعقائد في غير الإسلام وإن كان في بعضها قليل من الحق، فإنها لا تمثل الحق ولا تجليه.

فالعقيدة الصحيحة السليمة لا توجد في اليهودية ولا في النصرانية، ولا في كلام الفلاسفة... وإنما توجد في الإسلام في أصليه : الكتاب والسنة ندية طرية صافية مشرقة، تملأ الفؤاد إيماناً ونوراً وحياة ويقيناً، ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به ...**﴾. (الشورى : ٥٢) وتقنع العقل بالحجة والبرهان : ﴿**... إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾. وتنسجم مع الفطرة : ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾. (الروم : ٣٠).

رابعاً : ماذا تعني العقيدة؟

العقيدة الإسلامية ضرورية للإنسان، لأنه بدونها تائه ضائع يفقد ذاته ووجوده، والعقيدة الإسلامية وحدها التي تجيب على التساؤلات التي شغلت ولا تزال تشغل الفكر الإنساني، بل وتحيره من أين جئت؟ ومن أين جاء هذا الكون؟ من الموجد؟ ما صفاته ما أسماؤه؟ لماذا أوجدنا وأوجد الكون؟ وما

١- انظر العقيدة في الله : ١١.

دورنا في هذا الكون وما عـلاقتنا بالخالق الذي خلقنا؟ وهـل هناك عوامل غير منظورة وراء هذا العالـم المشهور؟ وهل هناك مخلوقات عاقلـة مفكرة غير هذا الإنسان؟ وهل بعد هذه الحياة من حياة أخرى نـصير إليها ؟ وكيف تكون تلك الحياة إن كان الجواب بالإيجاب؟ لا توجد عقيدة سوى العقيدة الإسلامية اليوم تجيـب علـى هذه الأسئلة إجـابة صـادقة مـقنـعة[1] وكل مـن لم يعـرف هذه العقيدة، أولـم يعتنقها فإن حاله لـن يختلف عن حال ذلك الشـاعر البائس[2] الذي لايدري شيئاً :

جئت، لا أعلم من أين، ولكنـي أتيت

ولقد أبصرت، قدامي طريقاً فمشيت

وسأبقي سائراً إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود

هل أنا حر طليق أم أسير في قيود

هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود

أتمنى أنني أدري ولكنني

لست أدري

١- انظر العقيدة في الله ١٢.

٢- هو إيليا أبو ماضي من قصيدة له طويلة بعنوان (الطلاسم) من ديوانه (الجداول) : ١٠٦.

وطريقي ما طريقي؟ أطويل أم قصير
هل أنا أصعد أم أنا أهبط فيه وأغور
أأنا السائر في الدرب أم الدرب تسير؟
أم كلانا واقف والدهر يجري
لست أدري
ليت شعري وأنا في عالم الغيب الأمين
أتراني كنت أدري أنني فيه دفين
وبأني سوف أبدو وبأني سأكون
أم تراني كنت لا أدرك شيئاً؟
لست أدري
أتراني قبلما أصبحت إنساناً سوياً
كنت محواً أو محالاً أم تراني كنت شيئاً
ألهذا اللغز حل؟ أم سيبقى أبدياً
لست أدري . . . ولماذا لست أدري
لست أدري [1]

وهذا الشاعر الملحد فقد معرفة الحقائق الكبرى فأصبح في هذه الحيرة والقلق والشك والأمراض النفسية، وأين هو من المسلم الذي يدري ويعرف

١- هو إيليا أبو ماضي من قصيدة له طويلة بعنوان (الطلاسم) من ديوانه (الجداول) : ١٠٦.

معرفة مستيقنة كل هذه الحقائق فإذا به يجد برد اليقين، وهدوء البال، وإذا به يسير في طريق مستقيم إلى غاية مرسومة يعرف معالمها، ويدري غايتها.

قال تعالى ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذالكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾. (الروم : ٤٠) وقال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. (الذاريات : ٥٦) واستمع إلى الشاعر البائس يتحدث عن الموت والمصير :

إن يك الموت قصاصاً أي ذنب للطهارة ؟

وإن كان ثوباً، أي فضل للدعارة

وإذا كان وما فيه جزاء أو خسارة

فلم الأسماء إثم وصلاح

لست أدري

إن يك الموت رقاداً بعده صحو طويل

فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل

ولماذا المرء لا يدري متى وقت الرحيل

ومتى ينكشف الستر فيدري؟

لست أدري

إن يك الموت هجوعاً يملأ النفس سلاماً

وانعتاقاً لا إعتقالاً وابتداء لا ختاماً

فلماذا لا أعشق النوم ولا أهوى الحماما؟

ولماذا تجزع الأرواح منه

لست أدري

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور؟

فحياة، فخلود، أم فناء فدثور؟

أكلام الناس أصدق أم كلام الناس زور؟

أصحيح أن بعض الناس يدري

لست أدري

إن أكن أبعث بعد الموت جثماناً وعقلاً

أترى أبعث بعضاً أم ترى أبعث كلاً

أترى أبعث طفلاً أم ترى أبعث كهلاً؟

ثم هل أعرف بعد الموت ذاتي؟

لست أدري[1]

(لست أدري) تلك هي الإجابة عن التساؤلات الخالدة وليست هي قولة شاعر فحسب (فسقراط) الفيلسوف الذي يعد من عمالقة الفلاسفة، يقول بصريح العبارة (الشيء الذي لا أزال أجهله جيداً أنني لست أدري).[2] بل إن اللا أدرية) مذهب فلسفي قديم.

إنه الضلال : الضلال عن الحقيقة إنه الشقاء، شقاء القلب وتعاسة

١- هو إيليا أبو ماضي من قصيدة له طريفة بعنوان (الطلاسم) من ديوانه (الجداول) : ١٠٧.

٢- الدين لدراز : ٦٩.

النفس وضياع الضمير المثقل المكدود، وكم في الحياة من أمثال هذا الشاعر البائس الضال بعضهم يستطيع أن يفصح عن شقوته، وحيرته، وبعضهم يحس ويعاني وتبقى أفكاره حبيسة نفسه الشقية.(١)

بالإسلام وحده يصبح الإنسان يدري، يدري من أين جاء، وإلى أين المصير، يدري لماذا هو موجود ومادوره في هذه الحياة. قال تعالى : ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾. (الملك : ٢٢) إن البشرية تخبطت في دياجير الظلام، وانتكست في مهاوي الشرك وضلت عن سواء السبيل، انحرفت عن منهج التوحيد، الذي جاءت به الأنبياء والرسل، فأصيبت البشرية في عقلها وفكرها وقلبها بالشرك وما ينبثق عنه من ضياع في المنهج والفكر والعقيدة والأخلاق، فانحرفت اليهودية عن التوحيد الذي جاء به موسى عليه السلام، على دراية من أحبارهم وعلمائهم ولذلك غضب الله عليهم، وأضاعت النصارى الحق الذي جاءبه عيسى عليه السلام فضلوا سواء السبيل.

فأصبحت البشرية في ظلمة شديدة قبل نزول القرآن وبزوغ فجر الإسلام كانت البشرية قبل نزول القرآن تعج بركام العقائد والتصورات المنحرفة في ذات الله وفي الكون وفي الحياة وفي الإنسان وفي الموت وفي الجزاء وفي الحساب وفي الكتب السماوية وفي رسل الله وفي أقدار الله وقضائه وأصبحت البشرية بين إفراط وتفريط بعيدة عن الصراط المستقيم حادت عن الوسطية والاعتدال، والاستقامة فبعض البشر زعم أن الملائكة بنات الله ثم عبدوا الملائكة كما فعل مشركو العرب، وبعضهم قالوا عزيرابن

٣- انظر : العقيدة في الله : ١٥.

الله كما فعلت اليهود، ووصف المولى عزوجل بصفات لا تليق به من صفات النقص وشبه بمخلوقاته، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وشاعت بين البشرية عبادة الأصنام، إما بوصفها تماثيل للملائكة، وإما بوصفها تماثيل للأجداد، وإما لذاتها، وكانت الكعبة التي بنيت لعبادة الله وحده، تعج بالأصنام، إذ كانت تحتوى على ثلاثمائة وستين صنماً. غير الأصنام الكبرى في جهات متفرقة.

ومما يدل على أن اللات والعزى ومناة كانت تماثيل للملائكة ما جاء في القرآن الكريم في سورة النجم ﴿أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى، أم للإنسان ما تمنى؟ فلله الآخرة والأولى، وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، إن الذين لا يؤمنون بالأخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى، وما لهم به من علم، إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾. (النجم ١٩-٢٨).

وانتشرت بين الناس عبادة الكواكب، وكانت قبيلة حمير تعبد الشمس وكنانة القمر، ولخم وجذام المشتري، وطي سهيلاً، وقيس العبور، وأسد عطارد.

وقد جاء عن هذا في سورة فصلت : ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾. (فصلت : ٣٧) وجاءت في سورة النجم : ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾. (النجم : ٤٩) وكثرت

الإشارات إلى خلق النجوم والكواكب وربوبية الله سبحانه لها كبقية خلائقه، وذلك لنفي ألوهية الكواكب وعبادتها، لقد سادت الصورة الشائهة للتصورات في الجزيرة العربية حيث بلاد الشام والرومان حيث النصرانية المحرفة، واليهودية المغضوب عليها وأصبحت البشرية شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً تعج بركام من بقايا العقائد السماوية المحرفة، ويجثم على ضمير البشرية في كل مكان، والذي كانت تنبثق منه أنظمتهم وأوضاعهم وآدابهم وأخلاقهم.[1]

من ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير أمرالعقيدة وتحديد الصورة الصحيحة التي يستقر عليها الضمير البشري في حقيقة الألوهية، وعلاقتها بالخالق، وعلاقة الخالق بها.. فتستقر عليها نظمهم وأوضاعهم وعلاقتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وآدابهم وأخلاقهم كذلك، فلا يمكن أن تستقر هذه الأمور كلها، إلا أن تستقر الألوهية وتتبين خصائصها واختصاصاتها.

وعنى الإسلام (في أصليه الكتاب والسنة) بإيضاح طبيعة الخصائص والصفات الإلهية المتعلقة بالخلق والإرادة والهيمنة والتدبير... ثم بحقيقة الصلة بين الله والإنسان... فلقد كان معظم الركام في ذلك التيه الذي تخبط فيه العقائد والفلسفات، مما يتعلق بهذا الأمر الخطير الأثر في الضمير البشري وفي الحياة الإنسانية كلها.

فالذي يعرف الجاهلية هو الذي يدرك قيمة الإسلام، ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه، ونعمة الله المتحققة به، إن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها وبساطة الحقيقة الكبيرة التي تمثلها... إن هذا كله

١- انظر خصائص التصور الإسلامي ومقوماته : ٤٢.

لا يتجلي للقلب والعقل، كما يتجلي من مراجعة ركام الجاهلية - السابقة للإسلام واللاحقة - عندئذ تبدو هذه العقيدة رحمة... رحمة حقيقية..: رحمة للقلب والعقل. ورحمة بالحياة والأحياء.

رحمة بما فيها من جمال وبساطة، ووضوح وتناسق، وقرب وأنس، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق.[1]

خامساً: هل تطورت العقيدة عبر الزمان؟

يرى كثير من الباحثين الغربيين أن الإنسان لم يعرف العقيدة على ما يعرفها عليه اليوم مرة واحدة، ولكنها ترقت وتطورت في فترات وقرون متعاقبة، ولا عجب أن يقول بهذا الإفك من لم يمنحهم الله كتابه الذي بين فيه تاريخ العقيدة بوضوح لا لبس فيه إلا أن الغريب أن يسلك هذا المذهب رجال يعدون أنفسهم ويعدهم غيرهم باحثين مسلمين.

ومن أمثال أولئك عباس محمود العقاد الذي يرى في كتابه (الله) وهو كتاب يبحث في نشأة العقيدة الإلهية: أن الإنسان ترقى في العقائد، ويرى أن ترقي الإنسان في العقائد موافق تماماً لترقيه في العلوم.

يقول: (كانت عقائد الإنسان الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى).[2]

١- انظر: المرجع السابق: ٤٦.

٢ - العقيد في الله ص(٢٤٣) نقلاً عن كتاب الله (للعقاد).

بل يرى أن تطورالعقيدة لدي الإنسان كان أشق من تطور العلوم والصناعات ويقول : وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات، لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى.

ويرى أن الحقيقة الإلهية لم تتجل للناس مرة واحدة يقول : (فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لايدل على بطلان التدين، ولا على أنها تبحث عن محال، كل مايدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد).[1]

ثم أخذ يستعرض آراء الباحثين في تاريخ العقيدة، فمنهم من يرى أن السبب في نشأة العقيدة هو ضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه من قوى الطبيعة والأحياء بعضهم يرى أن العقيدة الدينية عبادة (الطوطم)، كأن تتخذ بعض القبائل حيوانا (طوطميا) تزعمه أباً لها، وقد يكون شجراً أو حجراً يقدسونه، إلى آخر تلك الفروض التي قامت في أذهان الباحثين الغربيين.

ومع الأسف فقد سرت هذه النظرية إلى بعض الكتاب مثل مصطفى محمود في كتابه (الله) واعتنقهاجملة من الدارسين والذي أوقع هؤلاء في هذا الخطأ أمور :

الأول : أنهم ظنوا أن الإنسان اهتدى إلى العقيدة بدون معلم يعلمه ومرشد يوضح له : فما دام الأمر كذلك فلا بد أن يترقى في معرفته بالله كما

١- المرجع السابق ٢٤٤.

ترقى في العلوم والصناعات.

ثانياً : أنهم قدَّروا أن الإنسان الأول خلق خلقاً ناقصاً غير مؤهل لأن يتلقى الحقائق العظمى كاملة، بل إن تصوراتهم عن الإنسان الأول تجعله أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان.

الثالث : أنهم عندما بحثوا في الأديان ليتبينوا تاريخها لم يجدوا أمامهم إلا تلك الأديان المحرفة أو الضالة فجعلوها ميدان بحثهم، فأخضعوها للدارسة والتمحيص، وأنى لهم أن يعرفوا الحقيقة من تلك الأديان التي تمثل انحراف الإنسان في فهم العقيدة.[1]

سادساً : القرآن وحده يوضح تاريخ العقيدة.

ليس هناك كتاب في الأرض يوضح تاريخ العقيدة بصدق إلا كتاب الله سبحانه وتعالى ففيه علم غزير في هذا الموضوع، وعلم البشر لا يمكن أن يدرك هذا الجانب إدراكاً وافياً لأسباب :

الأول : أن ما نعرفه عن التاريخ الإنساني قبل خمسة آلاف عام قليل، أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف عام فيعتبر أقل من القليل، وما قبل ذلك يعتبر مجاهيل لا يدري علم التاريخ من شأنها شيئاً، لذا فإن كثيراً من الحقيقة ضاع بضياع التاريخ الإنساني.

الثاني : أن الحقائق التي ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير، بل قد ضاعت في أمواج متلاطمة في محيطات واسعة من الزيف والدجل والتحريف، ومما يدل على ذلك كتابة تاريخ حقيقي لشخصية أو جماعة ما في

١- المرجع السابق : ٢٤٤- ٢٤٥.

العصر الحديث تعتبر من أشق الأمور، فكيف بتاريخ يمتد إلى فجر البشرية؟

الثالث : أن قسما من التاريخ المتلبس بالعقيدة لم يقع في الأرض، بل في السماء.[1] لذا كان الذي يستطيع أن يمدنا بتاريخ حقيقي لا لبس فيه هو الله سبحانه وتعالى : ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾. (آل عمران : ٥).

تاريخ العقيدة كما يرويه القرآن الكريم :

أعلمنا الله سبحانه أنه خلق آدم خلقاً مستقلاً سوياً متكاملاً، ثم نفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأباح له أن يأكل هو وزوجه منها كيف شاء إلا شجرة واحدة، فأغراه عدوه إبليس بالأكل من الشجرة، فأطاع عدوه، وعصى ربه فأهبطه الله من الجنة إلى الأرض، وقبل الهبوط وعده الله سبحانه بأن ينزل عليه وعلى ذريته هداه كي يعرف الإنسان بربه ومنهجه وتشريعه ووعد المستجيبين بالهداية في الدنيا والسعادة في الأخرة، وتوعد الله المستكبرين بالمعيشة الضنكة في الدنيا وبالشقاء في الآخرة ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً، فاما يأتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. (البقرة : ٣٨-٣٩). وفي سورة طه يقول سبحانه : ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، قال كذلك

١- المرجع السابق : ٢٤٥.

أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾. (طه : ١٢٣-١٢٦).

سابعاً : الجيل الأول كان على التوحيد.

هبط آدم إلى الأرض، وأنشأ الله من ذريته أمة كانت على التوحيد الخالص كما قال تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ أي على التوحيد والدين الحق، فاختلفوا ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾. (البقرة : ٢١٣).

وفي حديث أبي أمامة أن رجلا سأل الرسول ﷺ قال : «يارسول الله أنبي كان آدم؟ قال : نعم، مكلم، قال : فكم بينه وبين نوح؟ قال : عشرة قرون». وذكر ابن عباس رضي الله عنه : إن كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام.[1]

ومقدار القرن مائة سنة وعلى ذلك يكون بين آدم ونوح ألف سنة وقد تكون المدة أكثر من ذلك إذ قيد ابن عباس هذه القرون العشرة بأنها كانت على الإسلام، فلا ينفي أن يكون بينهما قرون أخرى على غير الإسلام. وقد يكون المراد بالقرن الجيل من الناس قال تعالى : ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾. (الإسراء : ١٧) وقوله : ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾. (المؤمنون : ٣١).

١- تفسير الطبري : ٢/ ٣٣٥ - ٣٣٦.



الفصل الثاني

وسطية القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته

تمهيد : إن المتأمل في كتاب الله تبارك وتعالى وما جاء فيه عن دعوات الرسل وما أنزل عليهم من الكتب ليخرج بحقيقة واحدة، أطبق عليها جميع الرسل، وأنزلت بهاجميع الكتب السماوية، هذه الحقيقة هي : الدعوة إلى توحيد الله وعبادته دون سواه، فهي أسس الرسالات وعمودها الفقري، وهي القاسم المشترك بينها، وإن اختلفت بعد ذلك الشرائع والمناهج فما من نبي أرسل ولا كتاب أنزل إلا وكان أول ما يدعو إليه هو توحيد الله تبارك وتعالى.

يقول الله عز وجل في تقرير هذه الحقيقة : ﴿ولقد بعثنا في كل آمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾. (النحل : ٣٦) وفي آية آخرى يقول سبحانه : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ .(الأنبياء : ٢٥).

وإذا استعرضنا القرآن الكريم في حديثه عن رسل الله عليهم الصلاة والسلام نجد أن كل رسول قال لقومه : ﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾. (المؤمنون : ٢٣، والأعرف : ٨٥,٧٣,٦٥). ابتداء من أولهم نوح

عليه السلام، وانتهاء بخاتمهم نبينا محمد ﷺ.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام دينهم واحد، وهوالإسلام وشرائعهم مختلفة كما قال المصطفى ﷺ : «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد». [1]

قال الحافظ ابن حجر : (ومعنى الحديث : أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع، وقيل : المراد أن أزمنتهم مختلفة). [2]

وقال الحافظ ابن كثير في معنى الحديث : (أي : القدر المشترك بينهم وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومنهاجهم). [3] لقوله تعالى : ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾. (المائدة : ٤٨) .

وكل الأنبياء أخبروا بأنهم مسلمون ودعوا قومهم للإسلام؛ لأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره : ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾.(آل عمران : ١٩) ﴿ومن يبتغ غيرالإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الأخرة من الخاسرين﴾. (آل عمران : ٨٥).

وهذا يدل على أن دين جميع الأنبياء واحد وهو الإسلام ودعوتهم واحدة وهي الدعوة لتوحيد الله عزوجل وإفراده بالعبادة، على هذا مضى رسل الله والمسلمون من أممهم ولكن قومهم غيروا وبدلوا بعدهم وحرفوا وأدخلوا في دين الله مالم يأذن به الله، وشمل التحريف والتبديل أساس

١- أخرجه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (واذكر في الكتاب مريم) : ٦/ ٤٧٨.

٢- فتح الباري : ٦/ ٤٨٩.

٣- تفسير ابن كثير : ٧/ ١٨٣.

دعوة الرسل، وهو التوحيد. وما يتعلق بذات الله عزّ وجلّ من الأسماء والصفات فتفرقت الأمم في ذلك ما بين مفرط، ومفرط، وغال ومقصر لإعراضهم عن هدي المرسلين واتباعهم غير سبيل المؤمنين.

ومن أعظم الأمم اختلافا وضلالا في هذا الباب، أمتا اليهود والنصارى، فاليهود غلب عليهم التقصير والتفريط والجفاء، وإن كان لديهم غلو وإفراط، والنصارى غلب عليهم الغلو والإفراط وإن كان وقع منهم تفريط وتقصير في جوانب. والمسلمون اتبعوا الرسل، فهدوا لأقوم السبل، فكان قولهم هدى بين ضلالتين، وحقا بين باطلين، فهو كلبن سائغ يخرج من بين فرث ودم. وإليك البيان في ما ذهبت إليه كل من هذه الأمم الثلاثة في هذا الباب.[1]

١- وسطية أهل السنة بين الفرق : ٢٤٢-٢٤٣.

المبحث الأول

موقف أمة اليهود

عرفنا مما تقدم أن أمة يهود، أمة غلب عليها طابع، التفريط والتقصير في هذا الباب، بل هو الغالب عليهم في أكثر الأبواب :

ولعل من أبرز مظاهر تفريطهم وتقصيرهم في هذا الباب أمرين :

الأول : اتخاذهم الأنداد لله عزوجل، وعبادة الأصنام.

والثاني : إغراقهم في تشبيه الخالق بالمخلوق، ووصف الله عز وجل بالنقائص التي لا تليق إلا بالمخلوق.

فأما الأمر الأول : وهو اتخاذهم الأنداد وعبادة الأصنام، فإن القوم، لما أنقذهم الله من عدوهم فرعون وجنوده، وجاوز بهم البحر مع موسى عليه السلام، وأغرق عدوهم على مشهد منهم، ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، مالت نفوسهم إلى الوثنية وطالبوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم مثلها : يقول الله جل وعلا في ذلك : **﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾**. (الأعراف : ١٣٨) ثم بين لهم موسى عليه السلام ضلال أولئك وبطلان عملهم، وأن الإله الحق هو الله الذي فضلهم على العالمين فقال : **﴿إن هولاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون، قال أغيرالله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين﴾**. (الأعراف : ١٣٩-١٤٠).

١- اتخاذهم العجل في زمن موسى :

لم يلق نصح موسى عليه السلام وتذكيره ووعظه من القوم قلباً واعياً أو أذناً صاغية، فما أن تركهم عليه السلام وذهب إلى ربه يناجيه، حتى اتخذوا العجل من بعده إلهاً من دون الله قال تعالى : ﴿**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم، ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين**﴾. (الأعراف : ١٤٨) ﴿**وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون**﴾. (البقرة :٥١) ثم بين تعالى من تولى كبر إضلالهم وصناعة العجل لهم، فقال : ﴿**فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري . . .**﴾ إلى قوله :﴿ **فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي**﴾. (طه : ٨٥-٨٨).

فبين تعالى أن الذي عمل لهم العجل هو السامري، ومن العجيب أن كتاب العهد القديم ينسب هذا العمل الشنيع إلى هارون عليه السلام كما جاء في (سفر الخروج)[١] . ولقد تكرر من القوم، اتخاذ الأصنام وعبادتها بعد موسى عليه السلام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (وأهل الكتاب معترفون بأن اليهود عبدوا الأصنام مرات . . .)[٢].

وفي كتاب العهد القديم، إشارات كثيرة لعبادتهم الأوثان والأصنام، من ذلك.

١- انظر : العهد القديم، سفر الخروج إصحاح ٣٢ فقرة : ١- ٦.
٢- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ٣/٢٤٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١- ماجاء في (سفر الملوك الثاني) عن عودتهم لعبادة العجل في عهد رحبعام[١] يقول السفر : (. . . . وعمل عجلي ذهب وقال لهم : كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين اصعدوك من أرض مصر ووضع واحداً في بيت أبل، وجعل الآخر في دان)[٢].

٢- عبادتهم الأفعى وبعض التماثيل :

يذكر (سفر الملوك الثاني) عن الملك حزقيال أنه : (أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى؛ لأن بني إسرائيل كانو إلى تلك الأيام يوقدون لها . . .).[٣]

على أن موسى عليه السلام لم يعمل تمثالاً نحاسياً لحية ، وإنما كانت عصاه تنقلب إلى حية تسعى معجزة له ثم تعود سيرتها الأولى بعد ذلك عصاً يتوكأ عليها ويهُشُ بها علي غنمه، لكن لعل بني إسرائيل عملوا ذلك ونسبوه إلى موسى عليه السلام لتروج عند الناس ويعظموها ويعبدوها.

وأما الأمرالثاني : وهو قولهم بالتشبيه ووصف الخالق بصفات المخلوق :

وهذا أمرمشهور عنهم، حتى عده الشهرستاني[٤] من طباعهم الملازمة لهم، فإن القوم أسرفوا في تشبيه الله عزوجل بالمخلوق ووصفوه جل وعلا بالنقائص التي تختص بالمخلوق.

١- هو رحبعام ابن سليمان عليه السلام ملك بعد أبيه.

٢- سفر الملوك الأول، إصحاح ١٢ فقرة : ٢٨- ٢٩.

٣- إصحاح ١٨-فقرة : ٤.

٤- انظر : الملل والنحل ١٠٦/١، هو أبوالفتح محمد عبدالكريم توفي ٥٤٨هـ.

.ولقد سجل عليهم القرآن الكريم صوراً من ذلك، وكتابهم الذي بين أيديهم ينضح بالكثير من ذلك، ونحن نذكر فيما يلي نماذج من أقوالهم التي شبهوا فيها الخالق عزوجل بخلقه.

١- فمن ذلك : (وصفهم الله بالفقر).

وهو صفة لا تليق بخالق البشر، ولكن القوم لا عقول لهم ولا حياء عندهم، يقول عزوجل في ذلك : ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير، ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقواعذاب الحريق﴾. (آل عمران : ١٨١).

٢- ومن ذلك : (وصفهم له بأن يده مغلولة).

قال عزوجل ذاكراً قولهم هذا : ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾. (المائدة : ٦٤).

٣- وصفوه بأنه : (يحزن، ويندم على أفعاله) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

يصفه (سفر التكوين) بذلك فيقول : (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان الذي خلقه، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيورالسماء، لأني حزنت أني علمتهم).[1]

٤- ووصفوه : (بالتعب والاستراحة) تعالى عن ذلك.

١- إصحاح ٦فقرة :٥-٨

جاء في (سفر الخروج) : (أذكر يوم السبت لنقدسه ،ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملا أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك، وتريلك الذي داخل أبوابك؛ لأن في ستة أيام صنع الرب الأرض والسماء والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب اليوم السابع وقدسه).[1] وفي سفر (التكوين) : (فأكملت السماوات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل واستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل).[2]

٥- وقالوا : (بأنه إنسان وصارع يعقوب عليه السلام إلى الفجر).

ففي (سفر التكوين) : (فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال : أطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال : لا أطلقك إن لم تباركني فقال له : ما اسمك؟ فقال يعقوب، فقال : لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل؛ لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. . . فدعا يعقوب اسم المكان فينئيل قائلاً : لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي).[3]

٦- وصفوه بما يفيد أنه؛ (لا يعلم الغيب ويحتاج علامات يميز بها بني إسرائيل من غيرهم، فوضع الدم علامة على بيوت بني إسرائيل ليميزها عن بيوت المصريين حتى لا يهلكهم) . ففي (سفر الخروج) : (أن الرب كلم موسى عليه السلام وقال له فيما قال : فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة

١- إصحاح ٢٠ فقرة ١-١٧.

٢- إصحاح ٢فقرة١- ٢.

٣- إصحاح ٣٢-فقرة ٢٤-٣٠.

وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم، وأصنع أحكاما بكل ألهة المصريين أنا الرب، ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر).[1]

٧- أنهم : جعلوا له أبناء كما أن للمخلوق أبناء.

جاء في (سفر التكوين) : (وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا).[2] وحكى الله عزوجل عنهم أنهم جعلوا له ابناً فقال : ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله...﴾. (التوبة : ٣٠).

١- سفر الخروج، إصحاح ١٢- فقرة ١٢- ١٣.

٢- إصحاح ٦ فقرة ١- ٢.

المبحث الثاني

موقف النصارى

لقد ضلت أمة النصارى في هذا الباب ضلالاً بعيداً، ولعل أمة من الأمم لم تضل في دينها وربها وإلهها كما ضل الذين قالوا إنا نصارى. ولا عجب فالضلالة صفتهم المميزة لهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال».[1] قال ذلك في تفسير قول الله عزوجل: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. (الفاتحة: ٧) ولعل من أعظم ضلالهم في باب توحيد الله وصفاته أنهم:

١- شبهوا المخلوق بالخالق:

وأضفوا عليه من الصفات والخصائص مالا يليق إلا بالله عزوجل ولا يصلح إلا له سبحانه فوصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به، فقالوا: (إنه يخلق، ويرزق، ويغفر، ويرحم، ويتوب على الخالق ويثيب ويعاقب).[2] وهذه الصفات من خصائص الربوبية، وصفات الألوهية التي لا تكون إلا لله سبحانه.

وذلك أن هذه الأمة الضالة، جعلت المسيح عليه السلام هو الله، كما ذكر الله عزوجل قولهم هذا وكفرهم به فقال: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم...﴾. (المائدة: ١٧) وتارة جعلوه ابناً لله سبحانه وتعالى عما

١- الترمذي: كتاب التفسير، باب من سورة الفاتحة: ٥/ ٢٠٤.

٢- الوصية الكبرى، لابن تيمية: ٤.

يقول المبطلون ، وعن قولهم هذا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أني يؤفكون﴾ . (التوبة ٣٠).

وقالوا تارة أخرى إنه شريك لله وجزء من ثلاثة يتكون منها الإله كما ذكر الله قولهم هذا وكفرهم به أيضاً فقال : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ . (المائدة : ٧٣) فألهوا المسيح عليه السلام وجعلوه شريكاً لله، وعبدوه من دونه، بل وصفوه بأخص صفات الألوهية والربوبية من الخلق والرزق والإحياء، والإماتة؛ وبذلك فاقوا عباد الأصنام والأوثان الذين قالوا في معبوداتهم : ﴿مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ . (الزمر : ٣) ولم يضيفوا إليها شيئا من خصائص الربوبية كالخلق والرزق ونحو ذلك، بل أقروا بكل ذلك لله وحده كما قال عزوجل : ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ . (يونس : ٣١) ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأني يؤفكون﴾ . (العنكبوت : ٦١) ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ . (العنكبوت : ٦٣) ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ . (لقمان : ٢٥).

أما هؤلاء فلئن سألتهم عن شيء من ذلك ليقولن المسيح، فهو عندهم

الإله الخالق المحي المميت، باعث الرسل، ومنزل الكتب، حكى الإمام ابن القيم عنهم أنهم قالوا (وليس المسيح عند طوائفنا الثلاثة هكذا). بنبي ولا عبد صالح، بل هو رب الأنبياء وخالقهم وباعثهم ومرسلهم وناصرهم، ومؤيدهم ورب الملائكة).[1]

وفي قرارهم الذي قرروه في (مجمع نيقية).[2] الذي عقدوه سنة ٣٢٥م وسموه بـ (الأمانة) ونصوا فيه على ألوهية المسيح عليه السلام، صرحوا بأنه هوالذي سينزل للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم فقالوا : (وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم) وقالوا : (وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء).[3]

يقول أحد قساوستهم في رسالة إلى أبي عبيدة الخزرجي[4]، مصرحاً بألوهية المسيح وأنه خالق السماوات والأرض : (أما بعد حمد الله الذي هدانا لدينه، وأيدنا بيمينه، وخصنا بابنه ومحبوبه، ومد علينا رحمته بصلبه المسيح إلهنا، الذي خلق السموات والأرض وما بينهن، والذي أمدنا بدمه المقدس ومن عذاب جهنم وقانا. . .).[5]

١- هداية الحيارى، ٢٦٩.

٢- سمي بذلك؛ نسبة إلى مدينة نيقية من أعمال إصطنبول التي اجتمع بها عدد من علماء النصارى، وكان من قراراتهم القول بإلهية المسيح.

٣- انظر: الشهرستاني، الملل والنحل : ٢/٢٨.

٤- هو أبو جعفر أحمد بن عبدالصمد بن أبي عبيدة الخزرجي الساعدي كان مشهورا بالذكاء والنبل مات بفاس بالمغرب عام ٥٨٢هـ.

٥- أبو عبيدة الخزرجي بين المسيحية والإسلام : ٧٢.

وقال مخاطباً أبا عبيدة داعياً إياه للإيمان بألوهية المسيح الخالق : (وما عقائدكم كلها إلا حسنة، وكان عندكم عدل كثير في أصل دينكم، وخير شامل، فلو آمنتم بالمسيح وقلتم : إنه هو الله خالق السموات والأرض لكمل إيمانكم). [1]

وهكذا نرى النصارى يصفون المسيح عليه السلام بصفات الربوبية المختصة برب العالمين عزوجل، وهذا أمر انفردوا به من بين العالمين. ولم يقتصر الأمر على المسيح عليه السلام، بل جعلوا لغيره من الخلق بعض صفات الله تبارك وتعالى، فجعلوا مريم عليها السلام آلهة؛ لأنها أم الله بزعمهم، ووصفوها بالجلوس على العرش مع الله عزوجل، وسألوها مالا يسأل إلا من الله عزوجل.

يقول الإمام ابن القيم : (وأما قولهم في مريم : فإنهم يقولون إنها أم المسيح ابن الله ووالدته في الحقيقة... وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها، وابنها عن يمينه، قال : والنصارى يدعونها، ويسألونها سعة الرزق وصحة البدن وطول العمر ومغفرة الذنوب). [2]

وهذه الأمور لا يملكها إلا الله عزوجل ولا يسألها إلا هو سبحانه ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى قول النصارى بألوهية مريم في قوله تبارك وتعالى مخاطباً عيسى عليه السلام : ﴿**وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما**

١- نفس المصدر :٨٧

٢- هداية الحيارى :٢٦١

في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾. (المائدة : ١١٦).

بل خصوا كنائسهم وبابواتهم ومطارنتهم ببعض خصائص الله عزوجل كمغفرة الذنوب ودخول الجنة والحرمان منها ففي المجمع الثاني عشر من مجامعهم المعقود في سنة ١٢١٥م قرروا : (أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء).[1] وبناء على هذا القرار قامت الكنيسة بإصدار ما يسمى بـ (صكوك الغفران).

يقول أحد قسسهم في هذا : (وقد جعل الله في أيدى المطارين ما لم يجعله في يد أحد، وذلك أن كل ما يفعلون في الأرض يفعله الله في السماء، فإذا أذنبنا فهم الذين يقبلون التوبات ويعفون عن السيئات بأيديهم صلاح الأحياء والأموات).[2] ماذا أبقوا لله عز وجل؟!!

٢- ومن ضلالهم في هذا الباب أيضاً أنهم سبوا الخالق عزوجل وتنقصوه وذلك من وجهين :

الأول : قولهم إنه اتخذ ولداً، حيث قالوا : إن المسيح ابن الله، كما قال تعالى : ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾. (التوبة : ٣٠) وقد نزه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الصاحبة والولد فقال : ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون﴾. (البقرة : ١١٦) وقال سبحانه : ﴿وقالوا اتخذالرحمن ولداً، لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرالجبال هداً، أن دعوا للرحمن ولداً، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾.

١- أبو زهرة النصرانية : ١٤٨.

٢- أبو عبيدة الخزرجي، بين المسيحية والإسلام : ٩١.

(مريم : ٨٨ - ٩٣)، فأنكر قولهم، ونزه نفسه عن أن يكون له ولد.

وبين سبحانه في آية أخرى أن الولد لا يكون إلا من صاحبة ، وهو سبحانه لا صاحبه له، فقال عزوجل : ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾. (الأنعام : ١٠١).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (أي : كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي : الولد إنما يكون متولداً عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه، لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة ولا ولد. . .).[1]

وقد بين سبحانه في الحديث القدسي، أن من نسب إليه اتخاذ الولد فقد شتمه وسبه بقوله ذلك، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال : «قال الله : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله : لي ولد فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولداً».[2]

الثاني : زعمهم أن الله سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً (نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً وحبل به وولد من مريم البتول وقتل وصلب).[3]

وقال القس القوطي في رسالته إلى أبي عبيدة الخزرجي يشرح فيها مذهبه : (. . . فهبط بذاته من السماء والتحم في بطن مريم العذراء البتول أم

١- تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٠٢

٢- البخاري : كتاب التفسير، باب ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً . ...﴾ : ٨/١٦٨، رقم ٤٤٨٢.

٣- انظر : الشهرستاني، الملل والنحل : ٢/ ٢٨.

النور فاتخذ لنفسه منها حجاباً كما سبق في حكمته . . .).[1]

يقول الإمام ابن القيم : (. . . إن هذه الأمة - أي : النصارى ارتكبت محذورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة، أحدهما : الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءاً منه، وإلهاً آخر معه، ونفوا أن يكون عبداً له.

والثالث : تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم، حيث زعموا أنه سبحانه وتعالى عن قولهم علوا كبيراً - نزل من العرش عن كرسي عظمته، ودخل في فرج امرأة وأقام تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو[2] وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبط، ثم خرج من حيث دخل، رضيعاً صغيراً يمص الثدي . . . ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه، وربطوا يديه، وبصقوا في وجهه، وصفعوا قفاه، وصلبوه جهراً بين لصين، وألبسوه إكليلاً من الشوك، وسمروا يديه ورجليه، وجرعوه أعظم الآلام، هذا هو الإله الحق الذي بيده أتقنت العوالم وهو المعبود المسجود له، ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم . . . .).

وذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه قال فيهم : (أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله عزوجل مسبة ما سبه إياها أحد من البشر).[3]

وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من قول معاذ بن جبل رضي الله عنه.[4]

١- أبو عبيدة الخزرجي، بين المسيحية والإسلام : ٨٣ -٨٤.

٢- النجو : ما يخرج من البطن من ريح وغائط. انظر : لسان العرب : ٣٠٦/١٥.

٣- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان : ٢٧٨/٢.

٢- الجواب الصحيح : ٥٢/٢.

المبحث الثالث

موقف المسلمين

أما هذه الأمة المسلمة فقولها في هذا الباب هو ما جاء به المرسلون من توحيد الله وإفراده بالعبادة، فآمنت بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا إله غيره، ولا رب سواه، هو رب العالمين، وخالق الكون، ومدبره ﴿له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾. (الأعراف : ٥٤) ونزهوه سبحانه عن الأنداد، واتخاذ الصاحبة والأولاد، تصديقاً لقوله تعالى عن نفسه : ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾. (المؤمنون : ٩١)، وقالوا كما قال مؤمنو الجن : ﴿وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾. (الجن : ٣) وقوله : ﴿قل هو الله أحد الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾. (الاخلاص).

ووصفوه سبحانه بصفات الكمال والجلال، ونزهوه عن جميع صفات النقص، كما نزهوه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات. . .).[1] ولم يصفوه إلا بما وصف به نفسه سبحانه، أو وصفته به رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، من غير تعطيل ولا تمثيل فلم يشبهوه بشيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته - كما فعل اليهود - بل قالوا : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾. (الشورى : ١١). ولم

١- منهاج السنة لابن تيمية : ١٦٩/٥.

يشبهوا شيئاً من خلقه به، لا في ذاته ولا في شيء من صفاته، ولم يجعلوا له نظيراً أو نداً أو مثيلاً أو شريكاً في شيء من خصائص ألوهيته وربوبيته - كما صنع النصارى - بل نزهوه سبحانه عن الشبيه والنظير والكفء والند والمثيل.[1]

وإذا تأملت سورة الإخلاص وجدت بها صفات الكمال لله سبحانه وتعالى وهو أنه المنفرد بها وحده دون ما سواه قال تعالى: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾. (الإخلاص) ففي هذه السورة وصف الله سبحانه نفسه بأنه أحد صمد، فهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق.[2]

وذكر أبو هريرة في معنى الصمد: (إنه المستغني عن كل أحد والمحتاج إليه كل أحد).[3] ومن خلال قول أبي هريرة في معنى الصمد يدل على الإثبات والتنزيه، فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذي يصمد إليه أي يرجع إليه في كل أمر، وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال، فهو القادر على كل شيء، والفعال لما يريد، والذي بيده الخلق والأمر والجزاء، وما من قوة لغيره تعالى إلا بهيمنة منه، إذا شاء أبقاها ومتى شاء سلبها، فالمرجع والمرد إليه سبحانه.[4]

وأما التنزيه، فبوصفه تعالى بأنه غني عن كل شيء فلا افتقار فيه بوجه

١- وسطية أهل السنة بين الفرق: ٢٥٨.

٢- علو الله في خلقه بتصرف: ٢٨.

٣- تفسير القرطبي: ٢/٢٤٥.

٤- علو الله على خلقه بتصرف: ٢٨- ٢٩.

من الوجوه، لا في وجوده فإنه الأول الذي ليس قبله شيء وهو الذي لم يلد ولم يولد، ولا في بقائه فإنه الذي يُطعِم ولا يُطعَمْ، ولا في أفعاله فلا شريك ولا ظهير.(1)

كما أن وصفه سبحانه بأنه أحد صمد يدل على اتصافه بالكمال المطلق وكذلك يدلان على معنى آخر وهو نفي الولادة والتولد عن الله سبحانه، فإن الصمد جاء في بعض الأقوال بأنه لا جوف له ولا أحشاء، فلا يدخل فيه شيء فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يُطعِمُ ولا يُطعَمْ﴾ ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين﴾. (الأنعام: ١٤) وقال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هوالرزاق ذو القوة المتين﴾. (الذاريات: ٥٦-٥٧-٥٨) فإن الأحد هو الذي لاكفؤ له ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة.

والتولد إنما يكون من شيئين قال تعالى: ﴿بديع السموات والأرض أني يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾. (الأنعام: ١٠١) وفي قوله تعالى: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾. (الإخلاص: ٤) وفي هذا سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾. (الأنعام: ١) أي يعدلون به غيره فيجعلون له من خلقه عدلا.

١- المرجع السابق: ٢٨- ٢٩.

ومثال هذا قولـه تعالى : ﴿رب السموات والأرض وما بينـهما فاعبده واصطبر لـعبادته هل تعلم لـه سمياً﴾ . (مريم : ٦٥) أي لا شيئاً يـساميه ولا نداً ولا عدلاً ولا نظيـراً له يساويه، فأنكر التشـبيه والتمثيل وبهذا يـتبين لنا أن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما دلت على ذلك سورة الإخلاص[1] .

١- المرجع السابق : ٢٨ إلى ٣٤) للدويش .

المبحث الرابع

مفهوم الإيمان كما جاء في القرآن

لا ريب أن مفهوم الإيمان عندما نصل إليه من خلال القرآن وتوضيح سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام هي الوسطية بعينها في هذا الباب، وهي الاستقامة والاعتدال لذلك حرصت على إيضاح مفهوم الإيمان كما جاء في القرآن والسنة خصوصاً وأن الناس قد وقعوا في الإفراط والتفريط لبعدهم عن الوحيين الكتاب والسنة.

أولاً : في حد الإيمان وتفسيره :

إن معرفة حدود الاشياء وتفسيرها الذي يوضحها، يجب أن تتقدم أحكامها : فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها، فمن حكم على أمر من الأمور - قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصوراً يميزه عن غيره - أخطأ خطأ فاحشاً.

أما حد الإيمان وتفسيره، فهو : (التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به، والانقياد ظاهراً وباطناً، فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن، وذلك شامل للقيام بالدين كله).[1]

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون : الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح وهو : قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة،

١- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان للسعدي : ٩.

وينقص بالمعصية. فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله فالإقرار والاعتراف بما لله تعالى : من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته، وهو من أعظم أصول الإيمان، وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة - وهو - : التأله والتعبد لله ظاهراً وباطناً - من أصول الإيمان والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة؛ والإخبار باليوم الآخر، كل هذا من أصول الإيمان.[1]

وكذلك الإيمان بجميع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما وصفوا به في الكتاب والسنة من الأوصاف الحميدة، كل هذا من أصول الإيمان. كما أن أعظم أصول الإيمان : الاعتراف بانفراد الله بالوحدانية والألوهية، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بشرائع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة كل هذا من أصول الإيمان ولهذا رتب الله على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار، ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة. ولا يكون ذلك إلا بما ذكرنا : من شموله للعقائد وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح، لأنه متى فات شيء من ذلك، حصل من النقص وفوات الثواب، وحصول العقاب - بحسبه.

بل أخبر الله تعالى : أن الإيمان المطلق تنال به أرفع المقامات في الدنيا، وأعلى المنازل في الآخرة، فقال تعالى : ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون﴾. (الحديد : ١٩).

١- انظر :المرجع السابق : ١٠ .

والصديقون هم أعلى الخلق درجة بعد درجة الأنبياء، في الدنيا، وفي منازل الآخرة، وأخبر في هذه الآية، أن من حقق الإيمان به وبرسله، نال هذه الدرجة ويفسر ذلك ويوضحه ماثبت في الصحيحين عنه ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة، كما تراءون الكوكب الشرقي أو الغربي في الأفق؛ لتفاضل ما بينهم؛ فقالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى والذي نفسي بيده؛ رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين»[1].

وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين: في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفي كمال طاعتهم لله ولرسله، فقيامهم بهذه الأمور، به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين. وقد أمر الله في كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه: من الانقياد والاستسلام؛ وأثنى على من قام به، فقال في أعظم آيات الإيمان: **﴿قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم؛ لا نفرق بين أحد منهم؛ ونحن له مسلمون﴾**. (البقرة: ١٣٦).

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله؛ والإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده بقوله: **﴿ونحن له مسلمون﴾**. كما أثنى على المؤمنين في آخر السورة بالقيام بذلك، فقال: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه**

---

١ - أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٥٦)، ومسلم، كتاب الجنة، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف رقم (٢٨٣٠).

والمؤمنون؛ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله؛ وقالوا : سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير﴾. (البقرة : ٢٨٥).

فأخبر : أن الرسول ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء؛ بل آمنوا بهم جميعاً، وبما أوتوه من عندالله؛ وأنهم التزموا طاعة الله، فقالوا : سمعنا وأطعنا؛ وطلبوا من ربهم : أن يحقق لهم ذلك وأن يعفوا عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان، وأن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله يجازيهم بما قاموا به من حقوق الإيمان، وما ضيعوه منها كما قال تعالى عن أتباع الأنبياء عيسى وغيره أنهم قالوا : **﴿ربنا آمنا بما أنزلت، واتبعنا الرسول، فاكتبنا مع الشاهدين﴾**. (آل عمران : ٥٣) فآمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم؛ وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد وأن يحقق لهم القيام به : قولاً وعملاً واعتقاداً وقال تعالى : **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون؛ أولئك هم المؤمنون حقاً؛ لهم درجات عند ربهم، ومغفرة، ورزق كريم﴾**. (الأنفال : ٢-٤).

الصلاة فرضها ونفلها : يقيمونها ظاهراً وباطناً، ويؤتون الزكاة، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة، ومن كان على هذا الوصف فلم يبق من الخير مطلباً، ولامن الشر مهرباً. ولهذا قال : **﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾**، الذين يستحقون هذا الوصف على الحقيقة، ويحققون القيام به ظاهراً وباطناً ثم ذكر ثوابهم الجزيل - المغفرة المتضمنة لزوال كل شر ومحذور ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم ما لا عين رأت، ولا

أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالى : ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ماملكت إيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون؛ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾. (المؤمنون : ١إلى١١).

ففسر الله الإيمان في هذه الآيات بجميع هذه الخصال فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله : ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ إلى آخر الآيات المذكورة - فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقاً، ومضمونها : القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات وبتكميلهم للإيمان استحقرا أن يكونوا ورثة جنات الفردوس التي هي أعلى الجنات؛ كما أنهم قاموا بأعلى الكمالات. وهذه صريحة في أن الإيمان يشمل عقائد الدين، وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة، ويترتب على ذلك : أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها؛ وأن الناس في الإيمان درجات متفاوته بحسب تفاوت هذه الأوصاف.[١]

ولهذا كانوا ثلاث درجات : سابقون مقربون، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات، ومقتصدون، وهم : الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات، وظالمون

١- انظر : التوضيح والبيان : ١٦.

لأنفسهم، وهم : الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات، كما ذكرهم الله بقوله : **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله؛ ذلك هو الفضل الكبير﴾**. (فاطر : ٣٢) وقد يعطف الله على الإيمان، الأعمال الصالحة أو التقوى أو الصبر، للحاجة إلى ذكر المعطوف، لئلا يظن الظان أن الإيمان يكتفى فيه بما في القلب فكما في القرآن من قوله : **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾**. (البقرة : ٢٧٧) ثم يذكر خبراً عنهم، والأعمال الصالحات من الإيمان فمن ادعى أنه مؤمن : وهولم يعمل بما أمر الله به ورسوله من الواجبات، ومن ترك المحرمات فليس بصادق في إيمانه وهذا من وسطية القرآن واستقامته واعتداله وحكمته في هذا الباب.

كما يقرن بين الإيمان والتقوى، في مثل قوله تعالى : **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانو يتقون﴾**. (يونس : ٦٢-٦٣) فذكر الإيمان الشامل لما في القلوب من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة، ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقي ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان، ولهذا حقق ذلك بقوله : **﴿وكانوا يتقون﴾** كما وصف الله بذلك خيار خلقه، بقوله : **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم؛ وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون؛ فضلاً من الله ونعمة؛ والله عليم حكيم﴾**. (الحجرات : ٧-٨) فهذه أكبر المنن؛ أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويزينه في قلبه، ويذيقه حلاوته، وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام، ويبغض الله إليه أصناف المحرمات والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم في وضعه في محله

اللائق به.

كما ثبت في الصحيح من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع عن دينه، كما يكره أن يقذف في النار».[1] فذكر أصل الإيمان الذي هو محبة الله ورسوله؛ ولا يكتفي بمطلق المحبة، بل لابد أن تكون محبة لله مقدمة على جميع المحاب، وذكر تفريعها : بأن يحب لله، ويبغض لله فيحب الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين، لأنهم قاموا بمحاب الله واختصهم من بين خلقه، وذكر دفع ما يناقضه وينافيه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة، تقدر أعظم من كراهة إلقائه في النار .

وأخبر في هذا الحديث أن للإيمان حلاوة في القلب، إذا وجدها العبد سلته عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأعراض النفسية، وأوجبت له الحياة الطيبة، فإن من أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعاً - فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره - واجتهد في متابعة الرسول، وقدم متابعته على كل قول، وعلى إرادة النفوس وأغراضها، من كان كذلك فنفسه مطمئنة مستحلية للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام، فهو على نور من ربه، وكثير من المؤمنين لا يصل إلى هذه المرتبة العالية ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾. (الأنعام : ١٣٢).

وكذلك في الصحيحين من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال : «الإيمان

١- رواه مسلم شرح النووي، كتاب الإيمان باب الحياء شعبة من الإيمان : ٢/٦.

بضع وسبعون شعبة؛ أعلاها قول : لا إله إلا الله؛ وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان». وهذا صريح أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه، فجمع في هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته وهو قول : لاإله إلا الله؛ اعتقادا وتألها، وإخلاصها لله وبين أدناه، وهو إماطة العظم والشوكة وكل ما يؤذي، عن الطريق فكيف بما فوق ذلك : من الإحسان وذكر الحياء، والله أعلم : لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح كما به يتحقق كل خلق حسن، وهذه الشعب - المذكورة في هذا الحديث - هي جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. وهذا - أيضا - صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب واتصاف العبد بها أوعدمه، ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً كبيراً، فمن زعم : أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فقد خالف الحس مع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى.[1]

والانقياد لحكم الله ورسوله من علامات الإيمان قال تعالى : **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلموا تسليماً﴾**. (النساء : ٦٥) فأقسم تعالى أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، ولا يبقى في قلوبهم حرج وضيق من حكمه وينقادوا له انقياداً، وينشرحوا لحكمه، وهذا شامل في تحكيمه في أصول الدين، وفي فروعه، وفي الأحكام الكلية، والأحكام الجزئية.[2] وفي صحيح

١- انظر : التوضيح والبيان : ٢٣.

٢- انظر : التوضيح والبيان : ٢٣.

البخاري عن أنس مرفوعا : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحبه لنفسه». [1] وذلك يقتضي أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامة، فإنه من الإيمان ومن لم يقم بذلك ويحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه. [2]

وفي صحيح مسلم من حديث العباس بن عبدالمطلب[3] رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «ذاق طعمَ الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيا». [4]

والرضا بذلك يقتضي الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره وأفضليته عليه، وأن يرضى بالإسلام ديناً، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر المنن، حيث رضي الله له الإسلام ووفقه له، واصطفاه له، ويرضى بمحمد ﷺ نبياً، إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال، وأمته وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

فالرضا بنبوة الرسول ورسالته، واتباعه من أعظم ما يثمر الإيمان، ويذوق به العبد حلاوته، قال تعالى : ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾. (آل عمران : ١٦٤) قال

١- رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه : ١/١١.

٢- انظر : التوضيح والبيان : ٢٤.

٣- هو العباس بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصي القرشي أبو الفضل عم النبي ﷺ أسلم قبل عام الفتح وقدمه عمر في صلاة الإستسقاء وتوفي عام ٣٢هـ.

٤- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب من رضي بالله وبالإسلام وبمحمد : ١/٦٢.

تعالى : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزعليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم﴾. (التوبة : ١٢٨).

فكيف لا يرضى المؤمن بهذا الرسول الكريم الرؤف الرحيم؛ الذي أقسم الله أنه لعلى خلق عظيم، وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله، واقتداؤه برسوله، ومحبته واتباعه؛ وهذا علامة محبة الله؛ وباتباعه تتحقق المحبة والإيمان. قال تعالى : ﴿قل إن كنتم تحبون الله، فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾. (آل عمران : ٣١).

وفي صحيح مسلم من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي قال قلت : «يارسول الله؛ قل لي في الإسلام قولاً، لا أسال عنه أحدا بعدك، قال : قل : آمنت بالله، ثم استقم».[(١)]

فبين ﷺ بهذه الوصية الجامعة أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهراً وباطناً، ثم استقام عليه قولاً وعملاً فعلاً وتركاً، فقد كمل أمره، واستقام على الصراط المستقيم، ورجي له فلاح الدارين. وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم الإيمان كما جاء في القرآن ووضحته أحاديث سيد ولد عدنان عليه أفضل الصلاة والسلام يتضح لنا مفهوم الإيمان بعيداً على من أنكره جملة كالملاحدة أو انحرف في فهم حقيقته كالفلاسفة أو حرفوه عن أصله كاليهود أو ضلوا عن تصور معانيه والوقوف على ما هيته كالنصارى وبذلك يتضح لنا مفهوم الإيمان ووسطية واستقامة واعتدال القرآن في عرضه .

وابتعدت عن أقوال من وقع في البدع في حقيقة هذا الجانب من المعتزلة

١- مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام : ١/ ٦٥.

والخوارج والمرجئة والجهمية واكتفيت بقول واعتقاد أهل السنة والجماعة الذين هم الصحابة رضي الله عنهم، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث ومن تبعهم من الفقهاء جيلا فجيلا إلى يومنا هذا ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم.(١)

وقد بين النبي ﷺ أن النجاة لا تكون إلا لمن كان علي ماكان عليه رسول الله وأصحابه ومن تابعهم إلى يوم الدين قال رسول الله ﷺ: «.... وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلاواحدة قالوا: وما هي يارسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي».(٢)

ثانياً: منهج القرآن في الأمور التي يستمد منها الإيمان.

بما أن الإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها؛ لذلك جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما أنه له أسباب تضعفه وتوهيه.

والمواد التي تجليه وتقويه أمران: مجمل ومفصل أما المجمل فهو: التدبر لآيات الله المتلوة: من الكتاب والسنة؛ والمتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد، والعمل بالحق؛ فجميع الأسباب مرجعها إلى هذا الأصل العظيم .

وأما التفصيل: فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة: منها بل أعظمها:

١- انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٢/١١٣.

٢- رواه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة: ٥/٢٦ رقم الحديث: ٢٦٤١ وحسنه.

أولا : معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها، قال تعالى : ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾. (الأعراف : ١٨٠) فالتأمل في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى من منهج الوسطية والإلحاد في أسمائه وصفاته خروج عن منهج الوسطية الذي رسمه القرآن ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾. (الإسراء : ١١٠) والذين يصفون الله بغير ما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، يلحدون في آيات الله، وهذا انحراف عن الصراط المستقيم : ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾. (فصلت : ٤٠) ولذلك فإن الحرص على معرفة اسماء الله الحسنى وفهم معانيها يزيد الإيمان.

فقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : «إن لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحداً - من أحصاها، دخل الجنة». [1] أي من حفظها، وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبد الله بها دخل الجنة، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون فاعلم : أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته؛ معرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان وروحه، وأصله وغايته. فكلما إزداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه، وقوي يقينه، فينبغي للمؤمن : أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء

١- البخاري مع الفتح ، كتاب الدعوات ،باب لله مائة اسم : ٢١٨/١١،رقم الحديث : ٦٤١٠.

والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول ﷺ بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه المعرفة النافعة التي لايزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله.[1]

ويعجبني في هذا المقام كلام نفيس للعلامة ابن القيم رحمه الله حيث يقول: (ومشهد الأسماء والصفات من أجل المشاهد والمطلع على هذا المشهد يعرف أن الوجود متعلق خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى والصفات العلى، ومرتبط بها وإن كل ما في العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها فاسمه الحميد، المجيد، يمنع ترك الإنسان سدى مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، وكذلك اسمه (الحكيم) يأبى ذلك، وهكذا فكل اسم من أسمائه له موجبات وله صفات لا ينبغي تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماؤه، فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة، ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه بموجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك، ومايحمد به نفسه ويحمد به أهل سمواته وأهل أرضه، وماهو من موجبات كماله ومقتضي حمده وهوسبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما ومن آثارهما: مغفرة الزلات وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات

١- انظر: التوضيح والبيان: ٤١.

أو المسامحة عن الجنايات مع كمال القدرة على استيفاء الحق ، والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتهما فحلمه بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته كما قال عيسى عليه السلام في القرآن ﴿**إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم**﴾ . (المائدة : ١١٨) أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك لست كمن يغفر عجزاً ، ويسامح جهلاً بقدر الحق ، بل أنت عليم بحقك ، قادر على استيفائه حكيم في الأخذ به ، فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم ، وفي الأمر يتبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد ، وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده ، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته ، فلله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة ، والآيات الباهرة .

والله سبحانه دعا عباده إلى معرفته بأسمائه وصفاته وأمرهم بشكره ومحبته وذكره وتعبدهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى لأن كل اسم له تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية : المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر فلا يحجبه اسم عن اسم آخر، كما لا يحجبه التعبد باسمه (القدير) عن التعبد باسمه (الحليم الرحيم) أو يحجبه عبودية اسمه (المعطي عن عبودية اسمه (المانع) أو عبودية اسمه (الرحيم، العفو، والغفو) عن اسم المنتقم أو التعبد بأسماء (البر، والإحسان، واللطف) عن أسماء العدل والجبروت، والعظمة والكبرياء وهذه طريقة الكمال من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن قال تعالى : ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** . .﴾ . (الأعراف : ١٨٠) والدعاء بها يتناول

دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد[1] وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها .

فالله تعالى يحب موجب أسمائه وصفاته ، فهو عليم يحب كل عليم وهو (جواد) يحب كل جواد ، (وتر) يحب الوتر (جميل يحب الجمال) عفو يحب العفو وأهله (حييّ) يحب الحياء وأهله (بر) يحب الأبرار (شكور) يحب الشاكرين (صبور) يحب الصابرين (حليم) يحب أهل الحلم، فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة ، والعفو والصفح خلق من يغفر لهم ويتوب عليهم ويعفو عنهم ، وقدر عليهم ما يقتضي وقوع المكروه المبغوض له، ليترتب عليه المحبوب له المرضي له .[2]

وظهور أسماء الله وصفاته في هذه الحياة وفي النفس البشرية وفي الكون كله واضح ، لا يحتاج إلى دليل ، إلا أن الاهتداء إلى تلك الآثار أوالانتباه لها يتوقف على توفيق الله تعالى ، بل إن التوفيق نفسه من آثار رحمته التي وسعت كل شيء فلو فكر الانسان في هذا الكون الفسيح وفي نفسه لرجع من هذه الجولة الفكرية ، بعجائب واستفاد منها فوائد ما كان يحلم بها ولو تأملنا هذه الآية الكريمة لرأينا أموراً تعجز عن التعبير عنها قال تعالى : ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ . (المؤمنون : ١١٥-١١٦) ومما يدلل ويؤكد أهمية هذا التوحيد هو ما تثمره أسماء الله وصفاته في قلب المؤمن من زيادة الإيمان ورسوخ في اليقين ، وما تجلبه له من النور والبصيرة التي تحفظه

١- انظر : مدارج السالكين : ٢/ ٤١٧-٤١٨-٤١٩ .

٢- انظر :مدارج السالكين : ٢/ ٤٢٠ .

من الشبهات المضلله والشهوات المحرمة .[1]

فهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة ، فلكل اسم من أسماء الله له تأثير معين في القلب والسلوك فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما تضمنه واستشعر ذلك ، تجاوب مع هذه المعاني وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه ولكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح فمثلاً : عِلْمُ العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والاحياء والإماته يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضى الله وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطناً ، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح ، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه[2].

وكذلك معرفته بجلال الله وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة ، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها، وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى وجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع

١-.انظر : دراسات في مباحث توحيد الاسماء والصفات للتميمي: ١٤-١٥ .

٢- انظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم : ٢/ ٩٠.

العبودية فرجعت العبودية إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها .[1]

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب : هي أكمل الأحوال وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به ، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة وبهذه الاعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه ، فإنه أكرم الأكرمين ، وأجود الأجودين .[2]

لكل صفة من صفة الله أثر في قلب المؤمن .

وقد يظن بعض الذين يدعون العلم ، وممن لاحظ لهم من علوم الشريعة ، أن معرفة أسماء الله وصفاته لا تؤثر في الإيمان بالله من حيث الزيادة والنقصان ولا تؤثر في القلوب ، ولذلك لا فائدة من معرفتها أوجهلها أو إثباتها أو إنكارها ، وقد توسع في هذا الجانب الفلاسفة الذين وصفوا الله تعالى بصفات من عند أنفسهم وأنكروا وجحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله فانحرفوا عن منهج الوسطية ووقعوا في الإفراط والتفريط وابتعدوا عن الصراط المستقيم ومنهج الاعتدال الذي بينه القرآن الكريم .

ومما لا ريب فيه أنه ليست هناك صفة لله في القرآن أو في السنة إلا وقد ساقها الله تعالى لحكمة ومنفعة وغاية ولولا ذلك لما ساقها ولما ذكرها لأن كلامه وكلام رسوله ينزه عن العبث واللغو والحشو. ومن ظن أن الله يحشو كلامه بما لا فائدة في ذكره أو لا غاية من ورائه أو لا أهمية له فقد اتهم الله

١- انظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم : ٢/ ٩٠.

٢- انظر : القواعد الحسان للسعدي : ١٣٠.

بالنقص واللغو .

ولبيان أن لكل صفة من صفات الله أثراً في قلب المؤمن سنبين ذلك ببعض التفاصيل من حيث إن لكل صفة في القلب أثراً يتضح ذلك ويخرج في السلوك البشرى ، فلا توجد صفة من صفات الله إلا ولها أثر وفائدة وإنما الذي ينكر الأثرهم الجهلة والجاحدين أما علماء أهل السنة والجماعة فبينوا ذلك الأمر بياناً أوضح من الشمس في رابعة النهار .

أثر صفة العظمة :

وهذه الصفة مشتقة من اسمه تعالى العظيم ، والعظمة صفة من صفاته لا يقوم لها خلق ، والمقصود أن عظمة الله سبحانه لا يمكن أن يتصف بها أحد من خلقه والله خلق بين الخلق عظمة يعظم بها بعضهم بعضاً ، فمن الناس من يعظم لمال ، ومنهم من يعظم لفضل ، ومنهم من يعظم لعلم ، ومنهم من يعظم لسلطان ، ومنهم من يعظم لجاه ، وكل واحد من الخلق إنما يعظم لمعنى دون معنى ، والله عزوجل يعظم في الأحوال كلها ، فنبغي لمن عرف حق عظمته سبحانه أن لا يتكلم بكلمة يكرهها الله ، ولا يرتكب معصية لا يرضاها الله .

فإذا شعر العبد بعظمة الله خاف مولاه واتقاه ورغب في مرضاته سبحانه وتعالى والحديث الدال على صفة العظمة قول رسول الله ﷺ : «يقول تبارك وتعالى : العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار».[1]

١- أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب البراءه من الكبر: ٢/ ١٣٩٧، رقم الحديث : ٤١٧٥=

أثر صفة يد الله :

ومن الصفات التي جحدتها قلوب النفاة وأنكرها الزنادقة قديماً ، وصف الله نفسه سبحانه بأن له يَدَيْن وهذا ما قد مدح الله به نفسه في آيات كثيرة من كتابه وقد مدحه بها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة وهي تدخل في صفات الله الذاتية ، وقد بين سبحانه في الآيات والأحاديث عظمة عطائه وسعة فضله وأن يده الكريمة جل وعلا دائمة العطاء والإنفاق ، وفي مجال قوته وجبروته وبطشه وكمال قدرته وبيان عظمته أن السموات والأرض يوم القيامة تكون بيمينه ﴿**وما قدرو الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ . (الزمر : ٦٧).

ولا شك أن أثر الإيمان بهذه الصفة في قلب المؤمن عظيم لأنه يورث القلب المهابة لله والخوف منه وتعظيم أمره ، وشأنه وأنه الملك الذي قهر الملوك، وأنه لا مفر من قبضته ، ولا ملجأ منه إلا إليه .

أثر إسم الله الحميد :

وهذا الإسم يتضمن لصفة الحمد بكل أنواعه ، فهي صفة ذاتية لله عزوجل لا تنفك عنه وتظهر آثارها باستمرار في كل لحظة ومعناها أنه سبحانه مستحق لكل أنواع الحمد ، لأنه المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وليس ذلك لأحد سواه سبحانه ، كما يبدو لي أن العبد لابد أن يسلك في حياته سلوكا يحمد عليه ، لأن أعماله جميعاً يجب أن تكون خالصة للحميد، ولو أن كل فرد تحرى أن يكون عمله حميداً لصلح أمر الناس في الدنيا

= وصححه الألباني .

والآخرة ، ولا ختفت المتازعات فيما بينهم والخصومات ولعاشوا جميعاً إخوة في الله متحابين .[1]

أثر إسم الله المهيمن :

ومن آثار هيمنته سبحانه أنه يملك أن يتصرف في خلقه كيف يشاء لأنه ملكهم والمالك من حقه أن يتصرف في ملكه بكافة أنواع التصرف من نماذج هذه التصرفات ماذكره الله تنبيهاً وتذكيراً باستمرار وشمول هيمنته على خلقه سبحانه وتعالى .[2]

قال تعالى : ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البروالبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ . (الأنعام :٦٣-٦٤-٦٥) وإذا شعر القلب بهيمنة ربه عليه لجأ إليه وطلب العون منه لدفع ضر أو جلب نفع ، والآيات في هذا الباب كثيرة ، وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ .

أثر صفة العلو في قلب العبد :

إذا أيقن العبد أن الله تعالى فوق السماء ، عال على عرشه بلا حصر ، ولا كيفية ، وأنه الآن في صفاته كما كان في قدمه ، كان لقلبه في صلاته وتوجهه ، ودعائه. ومن لا يعرف ربه بأنه فوق السماء على عرشه ، فإنه يبقى ضائعاً لا يعرف وجهة معبوده ، ولكن ربما عرفه بسمعه ، وبصره وقدمه

١-٢- انظر : مفهوم الاسماء والصفات مقال في مجلة الجامعة الإسلامية العدد (٥٩) : ٧٠ - ٥٩

وتلك بلا هذا معرفة ناقصة ، بخلاف من عرف أن إلهه الذي يعبده فوق الأشياء ، فإذا دخل في الصلاة وكبر وتوجه قلبه إلى جهة العرش منزهاً له تعالى ، مفردا له كما أفرده في قدمه وألوهيته واعتقد أنه في علوه قريب من خلقه ، وهو معهم بعلمه وسمعه وبصره وإحاطته وقدرته ومشيئته ، وذاته فوق الأشياء ، فوق العرش ، ومتى شعر قلبه بذلك في الصلاة أشرق قلبه واستنار ، وأضاء بأنوار المعرفة والإيمان وعكفت أشعة العظمة على قلبه وروحه ، ونفسه ، فانشرح لذلك صدره ، وقوى إيمانه ، ونزه ربه عن صفات خلقه ، من الحصر والحلول ، وذاق حينئذ شيئاً من أذواق السابقين المقربين [1]

أثر صفة السمع :

قال تعالى : ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾. (المجادلة : ١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (الحمد لله وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عزوجل ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها . . .). [2]

أقول : لو أن دارس الأسماء والصفات ومدرسيها تأملوا ما دلت عليه هذه الصفات وأشعر المرء نفسه أنه مراقب في جميع أحواله وأن ما ينطق به لسانه يسمعه خالقه من فوق سبع سموات في حينه وأنه سيجازيه على ذلك

١- انظر : النصيحة في صفة الرب جل وعلا للواسطي : ٥٠

٢- البخاري مع الفتح، كتاب التوحيد، باب وكان الله سميعاً بصيراً : ١٣/ ٣٨٤.

لانعكس على سلوكه وأخلاقه وأعماله وسيرته في مجتمعه، ولظهرت الأخلاق الربانية وأصبح الشخص لله ولياً يمشي على وجه الأرض، ولشعرنا أن الأخلاق الرفيعة ثمرة من ثمرات التوحيد ، وبقدر مايملك العبد من الإيمان والتوحيد ينعكس ذلك ويظهر على أخلاقه .

ولابد أن نراعي قواعد السلف عند تأملنا وتفكرنا في أسماء الله وصفاته التي تزيدنا إيماناً بالله العلى العظيم ويعجبني في هذا المقام أن أكتب ما كان يقوله ويكرره شيخي الفاضل عبد المحسن العباد في دروسه بالمدينة النبوية (المذهب الحق وسط بين الطرفين في قضية الإثبات ، فلا نفي ولا تأويل ، وفيه التنزية فلا تشبيه ولا تمثيل، وكل من المشبهة والنفاة جمعوا بين إساءة وإحسان).

فالمشبهة : أحسنوا إذ أثبتوا فلم ينفوا الصفات ، وأساؤوا إذا شبهوا ومثلوا ، وأهل السنة والجماعة جمعوا بين الحسنيين وسلموا من الإساءتين ، فالإحسان الذي عند الطرفين عندهم ، وليس عندهم ما عند كل من الإساءة وذلك أنهم أثبتوا ما أثبت في الكتاب والسنة من الصفات، ونزهوا الله عن مشابهة خلقه ، وكما قال تعالى : **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**. (الشورى : ١١) فأول الآية تنزيه وآخرها إثبات، فمثل هذا المذهب الحق بالنسبة إلى الطرفين المتقابلين كاللبن السائغ للشاربين الذي يخرج من بين فرث ودم .[١]

١- عشرون حديثا من صحيح مسلم لعبدالمحسن العباد : ١٧٧-١٧٨ .

ثانياً : تدبر القرآن على وجه العموم :

فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه ، ما يزداد به إيماناً، كما قال تعالى: ﴿**وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون**﴾ . (الأنفال : ٢) وكذلك إذا نظرنا إلى انتظامه ، وإحكامه ؛ وأنه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً ، ليس فيه تناقض ولا اختلاف : تيقن أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾ . (فصلت : ٤٢) وأنه لو كان من عند غير الله ، لوجد فيه - من التناقض والاختلاف - أمور كثيرة ، قال تعالى : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ . (النساء : ٨٢) وهذامن أعظم مقويات الإيمان ، ويقويه من وجوه كثيرة : فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله ، ويعرف ما فيها من الأخبار الصادقة ، والأحكام الحسنة - يحصل له من أمور الإيمان ، خير كبير فكيف إذا أحسن تأمله ، وفهم مقاصده وإسراره؟! ولهذا كان المؤمنون الكمل يقولون :﴿ **ربنا ، إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان : أن آمنوا بربكم فآمنا** ﴾. (آل عمران : ١٩٣) .

ثالثاً: معرفة أحاديث النبي ﷺ، وما تدعوا إليه من علوم الإيمان وأعماله :

كلها من محصلات الإيمان ومقوياته ، فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنة رسوله ، ازداد إيمانه ويقينه ، وقد يصل في علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين ، فقد وصف الله الراسخين في العلم ، الذين حصل لهم العلم التام القوى الذي يدفع الشبهات والريب ، ويوجب اليقين التام ، ولهذا كانوا سادة المؤمنين الذين استشهد الله بهم واحتج بهم على غيرهم من المرتابين والجاحدين ، كما قال تعالى : ﴿ **هوالذي أنزل عليك الكتاب منه آيات**

محكمات ، هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾. (آل عمران : ٧).

فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات ، وردوا المتشابه من الآيات إلى المحكم منها ، وقالوا : آمنا بالجميع ، فكلها من عند الله ؛ وما منه ، وما تكلم به وحكم به كله صدق وحق . وقال تعالى : ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون ، يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك﴾. (النساء :١٦٢) .

وقال تعالى : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾. (آل عمران : ١٨) ولعلمهم بالقرآن العلم التام ، وإيمانهم الصحيح استشهد بهم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وقال الذين أوتو العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾. (الروم : ٥٦) وأخبر تعالى في عدة آيات ، أن القرآن آيات للمؤمنين وآيات للموقنين ، لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره - من العلم واليقين والإيمان - بحسب ما فتح الله عليهم منه ، فلا يزالون يزدادون علما وإيماناً ويقيناً.[1]

رابعاً : ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه - معرفة النبي ﷺ - ومعرفة ماهوعليه من الأخلاق العالية ، والأوصاف الكاملة ، فإن من عرفه حق المعرفة

١- انظر : التوضيح والبيان :٤٢-٤٣.

لم يرتب في صدقه وصدق ماجاء به من الكتاب والسنة والدين الحق كما قال تعالى: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم؟ فهم له منكرون﴾. (المؤمنون : ٦٩).

فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان بما لم يؤمن به ، وزيادة الإيمان بما آمن به . وقال تعالى حاثاً لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان : ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلانذير لكم بين يدى عذاب شديد﴾. (سبأ : ٤٦).

وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول وعظمة أخلاقه ، وأنه أكمل مخلوق بقوله : ﴿ن ، والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجرا غير ممنون، وإنك لعلى خلق عظيم﴾. (القلم : ١-٤) فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة ، وشمائله الجميلة ، وأقواله الصادقة النافعة ، وأفعاله الرشيدة فهو الإمام الأعظم ،والقدوة الأكمل ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ، ومانهاكم عنه فانتهوا﴾ . (الحشر :٧) .

وقد ذكر الله عن أولي الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا : ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً﴾ وهو هذا الرسول الكريم ﴿ينادي للإيمان﴾ بقوله وخلقه وعمله ودينه ، وجميع أحواله ﴿أن آمنوا بربكم فآمنا﴾ (آل عمران : ١٩٢) أي إيماناً لا يدخله ريب .

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله ، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله - توسلوا بإيمانهم أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات ، فقالوا : ﴿ربنا ، إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا

بربكم فأمنا ، ربنـا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئـاتنا ، وتوفنا مع الأبرار﴾ .
(آل عمران : ١٩٣).

ولهذا كان الرجـل المنصف - الذي ليس له إرادة إلا اتـباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه - يبادر إلـى الإيمان به ﷺ ، ولا يرتاب في رسالته بل كثيـر منهم - مـجرد ما يرى وجهـه الكريم - يعـرف أنه ليس بـوجه كذاب وقيل لبعضهم (لم بادرت إلى الإيمان بمـحمد قبل أن تعرف رسالته؟ فقال : ما أمر بشيء ، فـقال العقل ، ليته نـهى عنه ولا نهى عن شيء فـقال العقل ليته أمر به).[1]

فاسـتدل هذا الـعاقـل الموفق - بـحسن شـريعتـه ، وموافقـتهـا للعـقول الصحيـحة - على رسالته ؛ فبـادر إلى الإيمان به[2] ولهذا استـدل ملك الروم هرقل - لما وصف له ما جاء به الرسول ، ومـا كان يأمر به ، وما ينهى عنه - استدل بذلك أنه من أعـظم الرسل ؛ واعترف بذلك اعترافاً جليـاً ولكن منعته الرئاسة وخـشية زوال ملكه من اتـباعه ؛ كما منـعت كثيراً ممن اتضـح لهم أنه رسول الله حقـاً ، وهذا من أكبر موانع الإيمان في حق أمـثال هؤلاء وأما أهل البصائر والـعقول الصحيحة ، فإنـهم يرون هذه الموانع والرئاسـات والشبهات والشهوات ، ولا يـرون لها قيمة : حتى يـعارض بها الحق الصحيـح النافع ، المثمر للسعادة عاجلاً وآجلاً . ولهذا السبب الأعظم كان المعتنون بالقرآن حفظا ومعرفـة ، والمعتنـون بالأحاديث الصـحيحة أعـظم إيماناً ويقـيناً من غـيرهم ، وأحسن عملا في الغالـب .[3]

١-٢- المرجع السـابق : ٤٩ .
٣- شجرة الإيمان للسعدي : ٤٩ .

خامساً : ومن أسباب الإيمان ودواعيه التي بينها القرآن التفكر في الكون، في خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلـوقات المتنوعة ، والنظر في نفس الإنسان ، وماهو عليه من الصفات المتنوعة قال تعالى : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الـليل والنـهارلآيات لأولي الألـباب﴾. (آل عمران : ١٩٠) وقال تعالى : ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾.(الذاريات : ٢١).

فإن التـأمل والتفـكر في الكـون والنفس وآيـات الله المنـظورة داع قوى للإيمـان، لما في هـذه الموجـدات من عظـمة الخلـق الدالة عـلى قـدرة خالقـها وعظمته ؛ وما فيها : من الحسن والانـتظام ، والإحكام الذي يحير الألباب ، الدال علـى سعة علـم الله ، وشمـول حكمتـه ؛ وما فيهـا من أصناف المـنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصـى ، الدالة على سعة رحمة الله ، وجوده وبره ، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبـدعها وبارئها وشكره ، واللهج بذكره ؛ وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره .[1] وإذا تأملنا في مخلوقات اللـه كلهـا ،نجدها مـضطرة ومـحتـاجه إلى ربـها من كـل الوجوه ، وأنـها لا تستغنـي عنه طرفه عين خصوصاً مـا تشاهده في نفسك من أدلـة الافتقار وقوة الاضطرار، وذلك يوجب لـلعبد كمال الخضوع ، وكثرة الـدعاء والتضرع إلى الله : فـي جلب ما يـحتاجه مـن منافع ديـنه ودنياه ،ودفـع ما يضره فـي دينه ودنياه ، ويوجب له قوة التوكل على ربه ، وكمال الثقة بوعده ، وشدة الطمع في بره وإحسانه ، وبهذا يتحقق الإيمان ، ويقوى التعبد فإن الدعاء مخ العبادة وأصلها .[2] قال تعالى : ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد . . .﴾. (فاطر : ١٥) كذلـك التفكر في كـثرة نعم الله وآلائـه العامة

١-٢- التوضيح والبيان : ٥١.

والخاصة التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين فإن هذا يدعو إلى الإيمان.

ولهذا دعى الله الرسل والمؤمنين إلى شكره ، فقال : ﴿**يا أيها الذين أمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون**﴾. فالإيمان يدعو إلى الشكر والشكر ينمو به الإيمان فكل منهما ملازم وملزوم للآخر .

سادساً : ومن أسباب دواعى الإيمان التي بينها القرآن الإكثار من ذكر الله في كل وقت ، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة ، فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب ويغذيها وينميها وكلما ازداد العبد ذكراً لله قوى إيمانه؛ كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر ، فمن أحب الله أكثر من ذكره ، ومحبة الله هي : الإيمان ، بل هي روحه .قال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً . . .**﴾ . (الأحزاب : ٤١) ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الأخر وذكر الله كثيرا . . .**﴾ .(الأحزاب : ٢١).

سابعاً : ومن الأسباب الجالبة للإيمان التي بينها القرآن السعى والاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان في عبادة الله والاحسان إلى خلقه قال تعالى : ﴿**ومن يسلم وجه إلى الله وهو محسن . . .**﴾. (لقمان : ٢٢) وقال تعالى : ﴿**وقولوا للناس حسناً . . .**﴾. (البقرة :٨٣).

فعلى العبد : أن يعبد الله كأنه يشاهده ، فإن لم يقوى على هذا استحضر أن الله يشاهده ويراه ؛ فيجتهد في إكمال العمل واتقانه ولا يزال يجاهد نفسه ليتحقق بهذا المقام العالى ،حتى يقوى إيمانه ويقينه ويصل في ذلك إلى حق اليقين وطريق المحسنين كما جاء في القرآن بيان صفاتهم، قال

تعالى : ﴿إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالإسحار هم يستغفرون وفي آموالهم حق للسائل والمحروم﴾ .(الذاريات :١٥) وقال تعالى : ﴿الذين ينفقون في السراءَ والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾. (آل عمران : ١٣٤) .

وبذلك يتضح لنا صفات المحسنين ويكون الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع هو من الإيمان ومن دواعي زيادته ، والجزاء من جنس العمل ، فكما أحسن إلى عباد الله ، وأوصل إليهم من بره ما يقدر عليه، أحسن الله إليه أنواعاً من الإحسان ومن أفضلها : أن يقوى إيمانه ورغبته في فعل الخير ، والتقرب إلى ربه ، وإخلاص العمل له .[1]

ثامناً : ومن الأمور التي تقوي الإيمان وتزيده ما ذكره الله تعالى في سورة المؤمنين من قوله : ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ إلى قوله : ﴿أولئك هم الوارثون﴾. (المؤمنون : ١-١١) فهذه الصفات الثمان ، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه ؛ كما أنها من صفات الإيمان وداخلة في تفسيره كما تقدم ، فحضور القلب في الصلاة ، وكون المصلى يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله : من القراءة والذكر والدعاء فيها ، ومن القيام والقعود ، والركوع والسجود من أسباب زيادة الإيمان ونموه .[2]

وقد سمى الله تعالى الصلاة إيماناً بقوله : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾. (البقرة :١٤٣) ﴿وأقم الصلاة ؛ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء

١-٢- التوضيح والبيان :٥٤

والمنكر . . .﴾ .(العنكبوت : ٤٥) فحشاء ومنكر ينافي الإيمان ، كما أنها تحتوى على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه ؛ لقوله : ﴿ولذكر الله أكبر﴾. (العنكبوت : ٤٥) والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده فرضها ونفلها، وقد بين النبي ﷺ كونها برهان على إيمان صاحبها فهي تغذي الإيمان وتنميه، والإعراض عن اللغو الذي هو كل كلام لا خير فيه ، وكل فعل لا خير فيه - بل يقولون الخير ويفعلونه ، ويتركون الشر قولاً وفعلاً - لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان ويثمر.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم ، إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم ، يقول بعضهم لبعض «اجلس بنا نؤمن ساعة» فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية ، فيتجدد بذلك إيمانهم، وكذلك العفة عن الفواحش خصوصاً فاحشة الزنى ، لا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته .

فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدي ربه ، ﴿نهى النفس عن الهوى﴾. (النازعات : ٤٠) إجابة لداعي الإيمان ، وتغذية لما معه من الإيمان. ورعاية العهود والأمانات وحفظها من علامات الإيمان وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه فانظر حاله : هل يرعى الأمانات كلها مالية أو قوليه ، أو أمانات الحقوق ؟ وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التي بينه وبين الله ، والتي بينه وبين العباد ؟ إذ لم يكن كذلك نقص من دينه وإيمانه بمقدار ما انتقص من ذلك. وختماً بالمحافظة على الصلوات على حدودها ، وحقوقها ، وأوقاتها - لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذي يجري في بستان الإيمان فيسقيه وينميه ويؤتي أكله كل حين .

تاسعاً : ومن دواعي زيادة الإيمان وأسبابه الدعوة إلى الله وإلى دينه والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. والدعوة إلى أصل الدين ، والدعوة إلى التزام شرائعه بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وبذلك يكمّل العبد بنفسه، ويكمل غيره كما أقسم تعالى بالعصر ؛ أن جنس الإنسان لفي خسر إلا من اتصف بصفات أربع : الإيمان والعمل الصالح اللذين بهما تكمل النفس ، والتواصي بالحق - الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق - وبالصبر على ذلك كله ؛ يكمل غيره .

وذلك : أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده ، من أكبر مقومات الإيمان وصاحب الدعوة لابد أن يسعى بنصر هذه الدعوة ، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها ، ويأتي الأمور من أبوابها ،ويتوصل إلى الأمور من طرقها ، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه[1] قال تعالى : **﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ...﴾**.(فصلت : ٣٣ - ٣٦) ومن حرص على نصح الناس ودعوتهم إلى دين الله لابد أن يجازيه الله ويؤيده بنور منه ، وروح وإيمان وقوة توكل ، فإن الإيمان وقوة التوكل على الله ، يحصل بهما النصر على الاعداء من شياطين الإنس وشياطين الجن[2] قال تعالى : **﴿إنه ليس له سلطان على الذين**

١- التوضيح والبيان : ٥٨ .

٢- التوضيح والبيان : ٥٨ .

آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾.(النحل : ٩٩) والمتصدى لنصرة الحق ، لا بد أن يفتح عليه فيه من الفتوحات العلمية والإيمانية بمقدار صدقه وإخلاصه.

عاشراً : ومن أهم مواد الإيمان ومقوماته توطين النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان من شعب الكفر والنفاق والفسوق والعصيان . فقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الأسباب المقوية المنمية للإيمان ووضحها رسول الله ﷺ ، كذلك بين المولى عزوجل الموانع والعوائق وأرشد إلى دفعها ؛ وهي الإقلاع عن المعاصي ، والتوبة مما يقع منها ، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات ، ومقاومة فتن الشبهات القادحة في علوم الإيمان ، المضعفة له ، والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان ، فإن الإرادات التي أصلها الرغبة في الخير ومحبته والسعي فيه، لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها من رغبة النفس في الشر ، ومقاومة النفس الأمّارة بالسوء . فمتى حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات ، وفتن الشهوات تم إيمانه وقوى يقينه .[1]

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين : أحدهما : تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها علماً وعملاً وحالاً . والثاني : السعي في دفع ما ينافيها وينقصها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة ؛ ويداوي ما قصر فيه من الأول ، وماتجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح ، وتدارك الأمر قبل فواته.[2] قال تعالى : **﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان ، تذكروا فإذا هم مبصرون﴾**. (الأعراف : ٢٠١) أي مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه ، والنقص الذي أصابهم من طائف الشيطان ، الذي هو أعدى

١-٢- المرجع السابق : ٦١.

الأعداء للإنسان ؛ فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده ، وهذا الفتق برتقه ، فردوا إلى حالهم الكاملة ، وعاد عدوهم حسيراً ذليلاً ، وإخوان الشاطين ﴿يمدونهم في الغي، ثم لا يقصرون﴾. (الأعراف : ٢٠٢).

الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك ، والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك ؛ ويحق عليهم الخسار وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم الإيمان تبين أن ما جاء به القرآن ووضحه سيد الأنام ﷺ هو الصراط المستقيم والاستقامة والاعتدال بعيداً عن ماوقع فيه الملاحدة من الزور والبهتان ، ووقع فيه الفلاسفة من تصورات خاطئة مريضة في أسماء الله وصفاته وأفعاله وذاته.

لقد وقع الناس بين إفراط وتفريط وإنكسار وغلو ، فأكرم الله البشرية بهذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ففي جانب الايمان بالله تعالى جاء القرآن بالمنهج الوسط الذي تجسدت فيه ملامح الوسطية من حكمة واستقامة واعتدال وعدل وبينية .

وقبل الانتهاء من مبحث الإيمان وأسباب زيادته رأيت من باب الفائدة والحث على استيعاب وفهم هذا الموضوع المهم في حياة الناس أن أتطرق إلى فوائد الإيمان وثمراته كما جاءت في القرآن موضحاً الآثار والفوائد والثمرات العاجلة والآجلة في القلب والبدن والراحة والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة ، وذكر القرآن الكريم لهذه الفوائد والثمار يرسم لنا الصورة اليانعة الحية في وسطية القرآن في قضية الإيمان .

ثالثاً : فوائد الإيمان وثمراته .

إن من حكمة الله الربانية أن جعل قلوب عباده المؤمنين تحس وتتذوق وتشعر بثمرات الإيمان لتندفع نحو مرضاته والتوكل عليه سبحانه وتعالى فإن شجرة الإيمان إذا ثبتت وقويت أصولها وتفرعت فروعها ، وزهت أغصانها ، وأينعت أفنانها عادت على صاحبها وعلى غيره ، بكل خيرعاجل وآجل في الدنيا والآخرة وثمار الإيمان وثمراته وفوائده كثيرة قد بينها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم فمن أعظم هذه الفوائد والثمار .

أولاً : الاغتباط بولاية الله الخاصة ، التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون ، وتسابق فيه المتسابقون وأعظم ما حصل عليه المؤمنون ، قال تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ ثم وصفهم بقوله : ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾. (يونس : ٦٢-٦٣) فكل مؤمن تقي ، فهو لله ولي ولاية خاصة ، من ثمراتها ما قاله الله عنهم : ﴿**الله ولي الذين آمنو يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾ .(البقرة :٢٥٧) أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر ، وحاصل ذلك أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل. وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل، بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى فإن التقوى من تمام الإيمان .

ثانياً : الفوز برضا الله ودار كرامته قال تعالى : ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ؛ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك**

سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم، وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ؛ ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾. (التوبة : ٧١ - ٧٢) فنالوا رضا ربهم ورحمته ، والفوز بهذه المساكن الطيبة بإيمانهم الذي كملوا به أنفسهم ، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فاستولوا على أجل الوسائل ، وأفضل الغايات وذلك فضل الله .

ثالثاً : ومن ثمرات الإيمان أن الله يدافع عن المؤمنين جميع المردة ، وينجيهم من الشدائد كما قال تعالى : ﴿إن الله يدافع عن الذين أمنوا﴾. (الحج : ٣٨) أي يدافع عنهم كل مكروه ، يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء ، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها ويرفعها أو يخفضها بعد نزولها ، ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس عليه السلام وأنه : ﴿نادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾. قال : ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم ؛ وكذلك ننجي المؤمنين﴾. (الأنبياء : ٨٧-٨٨). إذا وقعوا في الشدائد ؛ كما أنجينا يونس قال النبي ﷺ : «دعوة أخي يونس ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كربته لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» وقال تعالى : ﴿ومن يتقى الله يجعل له من أمره يسراً﴾. (الطلاق : ٤).

فالمؤمن المتقى ييسر الله له أموره وييسره لليسرى ، ويجنبه العسرى، ويسهل عليه الصعاب ويجعل له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً؛ ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وشواهد هذا كثيرة من

الكتاب والسنة.[1]

رابعاً : ومنها أن الإيمان والعمل الصالح الذي هو فرعه يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار ، وفي دار القرار قال تعالى : ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾. (النحل :٩٧).

ذلك أن من خصائص الإيمان ، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته وقناعته بما رزق الله ، وعدم تعلقه بغيره ، وهذه هي الحياة الطيبة فإن أصل الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته ، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح .

خامساً : ومنها : أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والاخلاص ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل ، مثل قوله : ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه﴾. (الانبياء : ٩٤) أي لا يجحد سعيه ولا يضيع عمله ؛ بل يضاعف بحسب قوة إيمانه وقال تعالى : ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾.(الإسراء : ١٩) والسعي للآخرة هو العمل بكل ما يقرب إليها ، ويدني منها ، من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ فإذا تأسست على الإيمان ، ونبتت عليه كان السعي مشكوراً مقبولاً مضاعفاً ، لا يضيع منه مثقال ذرة . وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره فإنه غير مقبول قال تعالى : ﴿وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ . (الفرقان :٢٣) وذلك لأنها

١- التوضيح والبيان :٦٧

أسست على غير الإيمان بالله ورسوله الذي روحه الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول . قال تعالى : ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، فحبطت أعمالهم ، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ . (الكهف : ١٠٣-١٠٥) فهم لما فقدوا الإيمان ، وحل محله الكفر بالله وآياته حبطت أعمالهم ، قال تعالى : ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ . (الزمر : ٦٥) ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ . (الأنعام : ٨٨).

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة ،كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يَجُبُّ ما قبله ، من السيئات وإن عظمت، والتوبة من الذنوب المنافية للإيمان ، والقادحة فيه والمنفقة له تجب ما قبلها.[١]

سادساً ومن ثمرات الإيمان أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم ويهديه إلى علم الحق ، وإلى العمل به ، وإلى تلقى المحاب بالشكر، وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر قال تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملو الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ . (يونس :١٠) وقال تعالى : ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ .(التغابن : ١١).

ذكر الشوكاني[٢] رحمه الله في تفسير هذه الآية : (هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم. ولو لم يكن من ثمرات

١- المرجع السابق :٧٥

١- هو الإمام محمد بن علي الشوكاني ثم الصنعاني القاضي محدث وفقيه وأصولي ومفسر ، واسم تفسيره فتح القدير توفي ١٢٥٠هـ ، أنظر مناهج المفسرين : ٥٠

الإيمان ، إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره التي كل أحد عرضة لها في كل وقت ، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها ، ومهون لها وذلك لقوة إيمانه وقوة توكله ، ولقوة رجائه بثواب ربه ، وطمعه في فضله فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر ، قال تعالى : **﴿إن تكونوا تألمون ، فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ﴾**[1].

سابعاً : ومن ثمرات الإيمان ولوازمه وفوائده وخيراته من الأعمال الصالحة ما ذكره الله بقوله : **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سيجعل لهم الرحمن وداً﴾**. (مريم : ٩٦) أي بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين ، ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين من الثناء والدعاء له حياً وميتاً ، والاقتداء به ، وحصول الإمامة في الدين[2].

وهذه أيضاً من أجل ثمرات الإيمان : أن يجعل الله للمؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل لسان صدق ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره كما قال تعالى : **﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون﴾** . (السجدة : ٢٤) فبالصبر واليقين اللذين هما رأس الإيمان وكماله نالوا الإمامة في الدين[3].

ثامناً : ومنها قوله تعالى : **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾**. (المجادلة : ١١) فهم أعلى الخلق درجة عند الله وعند عباده

١- فتح القدير للشوكاني :٥/ ٢٣١

٢- التوضيح والبيان : ٧٦

٣- التوضيح البيان : ٧٦

في الدنيا والأخرة وإنما نالوا هذه الرفعة ، بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم، والعلم واليقين من أصول الإيمان .

تاسعاً : ومن ثمرات الإيمان حصول البشارة بكرامة الله ، والأمن التام من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿وبشر المؤمنين ﴾ .(البقرة : ٢٢٣) فأطلقها ليعم الخير العاجل والآجل ، وقيدها في مثل قوله تعالى : ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الانهار﴾. (البقرة : ٢٥) فلهم البشارة المطلقة والمقيدة ، ولهم الأمن المطلق في مثل قوله تعالى : ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾. (الانعام :٨٢) ولهم الأمن المقيد في مثل قوله تعالى : ﴿فمن أمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. (الأنعام : ٤٨) فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم، وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة : أمن من سخط الله وعقابه ، وأمن من جميع المكاره والشرور وله البشارة الكاملة بكل خير ، كما قال تعالى : ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾. (يونس : ٦٤) .

ويوضح هذه البشارة قوله تعالى :﴿إن الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الأخرة . ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم﴾. (فصلت : ٣٠-٣٢).

وقال تعالى : ﴿يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله : يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ، والله غفور

رحيم ﴾. (الحديد : ٢٨) فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف ، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته ، ويمشي به يوم القيامة : ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانكم ، بشراكم اليوم، جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. (الحديد : ١٢).

فالمؤمن من يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه وإذا طفئت الأنوار يوم القيام مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم ، وكذلك رتب المغفرة على الإيمان ، ومن غفرت سيئاته سلم من العقاب ، ونال أعظم الثواب.[1]

عاشراً : ومن ثمرات الإيمان حصول الفلاح الذي هو إدراك غاية الغايات، فإنه إدراك كل مطلوب ، والسلامة من كل مرهوب والهدى الذي هو أشرف الوسائل ، كما قال تعالى بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على من قبله ، والإيمان بالغيب ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين هما من أعظم آثار الإيمان قال تعالى : ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾. (البقرة : ٥).

فهذا هو الهدى التام والفلاح الكامل ، فلا سبيل إلى الهدى والفلاح اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله ، وبكل رسول أرسله الله فالهدى أجل الوسائل ، والفلاح أكمل الغايات[2].

الحادي عشر : ومن ثمرات الإيمان : الانتفاع بالمواعظ والتذكير بالآيات قال تعال : ﴿وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين﴾. (الذاريات : ٥١) ﴿إن في

١-٢- المرجع السابق :٧٩-٨٠

ذلك لآية للمؤمنين ﴾. (الحجر : ٧٧).

وهذا لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه ، علماً وعملاً وكذلك معه الآلة العظيمة والاستعداد لتلقى المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق ، وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق ، ولا من العمل به .

وأيضاً : فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد، ومن كان كذلك انتفع بالآيات، ومن لم يكن كذلك فلا يستغرب عدم قبوله للحق واتباعه له ، ولهذا يذكر الله - في سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول ﷺ وقبوله الحق الذي جاء به - السبب الذي أوجب لهم ذلك وهو الكفر الذي في قلوبهم، يعني لأن الحق واضح وآياته بينه واضحة والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه، أي فلا تستغربوا هذه الحالة، فإنها لم تزل دأب كل كافر[١].

الثاني عشر : ومنها أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم، قال تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذي آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا. . .﴾. (الحجرات : ١٥) أي دفع الإيمان الصحيح الذي معه الريب والشك الموجود، وإزالته بالكلية، وقاوم الشكوك التي تلقيها شياطين الإنس والجن، والنفوس الأمارة بالسوء فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان. ولهذا ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «لا يزال الناس يسألون حتى يقال : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد ذلك فليقل آمنت بالله ».[٢] وفي رواية «فليستعذ بالله ولينته».[٣]

١- انظر : التوضيح والبيان : ٨١

٢- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان : ١١٩/١.

٣- المرجع السابق : ١٢٠/١.

وبهذا بين ﷺ الدواء النافع لهذا الداء المهلك وهو ثلاثة أشياء : الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبه بها : ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به كان من الآمنين. وذلك لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة أعظمها العلم أنه منافي للحق، وكل ما نقض الحق فهو باطل ﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال**﴾. (يونس : ٣٢).

الثالث عشر : ومنها أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلم بهم ، من سرور وحزن وخوف وأمن ، وطاعة ومعصية ، وغير ذلك من الأمور التي لابد لكل أحد منها؛ فيلجؤون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه ويزيدهم إيماناً وثباتاً ، وقوة وشجاعة ويضمحل الخوف الذي أصابهم كما قال تعالى عن خيار الخلق : ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل**﴾. (آل عمران :١٧٣-١٧٤).

لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار ، وخلفه قوة الإيمان وحلاوته وقوة التوكل على الله ، والثقة بوعده ، ويلجؤون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة ، فيعترفون بنعمة الله عليهم بها ؛ وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق وكذلك يحرصون على تكميلها ، وعمل كل سبب لقبولها وعدم ردها أو نقصها ، ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها، أن يتم عليهم نعمته بقبولها ، والذي تفضل عليهم بحصول أصلها ، أن يتم لهم منها ما إنتقصوه منها : ﴿**أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون** . .﴾. (المؤمنون : ٦١) ويلجؤون إلى الإيمان إذا

ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها ، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها قال تعالى : ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾. (الأعراف : ٢٠١).

فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان ومفزعهم إلى تحقيقه ودفع ما ينافيه ويضاده ، وذلك من فضل الله عليهم ومنه[1] وخوفا من الإطالة نقتصر على هذه الثمرات العظيمة التي بينها المولى عزوجل وبذلك نستيقين أن كتاب الله جاء تبياناً لكل شيء، وعرض قضية الإيمان من جوانبها المتعددة النافعة للناس وبين وسائل زيادة الإيمان ورغبنا فيه بذكر فوائده وثماره بحكمة بالغة تليق بالحكيم العليم جل وعلا.

وبين المولى عزوجل في كتابه حقيقة الإيمان بأنه اعتقاد بالجنان ونطق باللسان ، وعمل بالأركان ووضعنا على الصراط المستقيم وسلمت عقول المسلمين وقلوبهم من أمراض التعطيل والتشبيه ، والأفراط والتفريط ، ووقع أهل البدع في الإنحراف عن جادة الصواب وطريق أهل الاستقامة لأنهم، ابتعدو عن كتاب الله وسنة رسوله وفهم الصحابة والتابعين لهم بإحسان من علماء وفقهاء ومحدثين .

١- التوضيح والبيان :٨٥



الفصل الثالث

الملائكة

تمهيد : إن الإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد ، لا يتم الإيمان إلا به ، والملائكة من عوالم الغيب التي إمتدح الله المؤمنين بها ، تصديقا لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه وسنة نبيه هذا الموضوع بحيث أصبح - عند طلع على هذه النصوص - الإيمان بها واضحاً، وليس فكرة غامضة ، وهذا ما يعمق الإيمان ويرسخه ، فإن المعرفة التفصيلية أقوى وأثبت من المعرفة الإجمالية .

وبين الله سبحانه وتعالى الانحراف الذي وقع فيه الناس في اعتقادهم في الملائكة منذ القديم فهناك من عبدهم، وهناك من ظن أنهم بنات الله وأما الفلاسفة فإنهم يرون أن الملائكة هم الافلاك التي نراها في الفضاء وبعضهم انكر وجودها، وأما اليهود فعادوا بعضهم ووصفوا الملائكة بأنهم يشربون ويأكلون.[1]

كما ذكرت التوراة المحرفة في سفر التكوين وبعض أسفارهم أن الملائكة لا تأكل ولا تشرب واضطرب أمرهم في هذا الشأن ، واستزلهم الشيطان. وتصور التوراة جبرئيل عليه السلام بأنه شيطان - لعنة الله على اليهود -

---

١- الإسلام في مواجهة الاستشراق، عبدالعظيم المطعي :١٩٥

يصنع الغواية ، يغوي الانبياء ؟

قالت التوراة المحرفة : (قد رأيت الرب جالساً على كرسيه ، وكلى جند السماء وقوف لديه، عن يمينه وعن يساره فقال الرب : من يغوي آخاب فيصعد ويسقط في رامون جلعاد ، فقال هذا هكذا وقال ذاك هكذا ، ثم خرج الروح - يعني - جبريل ووقف أمام الرب وقال أنا أغويه ، وقال له الرب بماذا ؟ فقال : أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه فقال : إنك تغوية وتقتدر ؟ فاخرج وافعل هكذا).[1]

يا سبحان الله يجعلون جبريل روح كذب في أفواه جميع أنبياء أخاب والرب يشجعه على ذلك؟! وبذلك اتضحت مسالك الناس في اعتقادهم في الملائكة بين منكر لها وهم الملاحدة، وبين متصور لها بأفلاك وأوهام وهم الفلاسفة، وبين زاعم بأنها بنات الله وعبدوها من دون الله وهم مشركو العرب.

وجاء القرآن ليبين منهج الوسطية في هذا الركن من العقائد بما ينفع الناس ويدلهم علي الصراط المستقيم الذي هو الوسطية في هذا الدين وجاء القرآن الكريم موضحاً ما ينفع الناس ويصحح تصوراتهم وأفكارهم ومعتقدهم في قضايا الاعتقاد وغيرها .

إن المسلم يعتقد اعتقاداً جازماً بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور ، وأنهم ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها. ولا يصلح إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم ، وبما ورد في حقهم من صفات وأعمال في كتاب الله سبحانه ، وسنة رسوله ﷺ من

١- سفر التكوين : الإصحاح ١٨الفقرات : ١-٨.

غير زيادة ولا نقصان ، ولا تحريف .[1]

قال تعالى : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ . (البقرة : ٢٨٥) وفي الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سأل جبريل عليه السلام عن الإيمان قال ﷺ : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدرخيره وشره» .[2]

فوجود الملائكة ثابت بالدليل القطعي الذي لا يمكن أن يلحقه أدنى شك، ومن هنا كان إنكار وجودهم كفراً بنص القرآن العظيم ، فقد قال عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾. (النساء :١٣٦).

والذي يجمع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ، التي تكلمت عن الملائكة، وأوصافهم وأعمالهم وأحوالهم ، يلاحظ : أنها تناولت في الغالب ما بين علاقتهم بالخالق سبحانه وبالكون، والإنسان، فعرفنا سبحانه من ذلك على ما ينفعنا في تطهير عقيدتنا ، وتزكية قلوبنا وتصحيح أعمالنا.

وأماحقيقة الملائكة، وكيف خلقهم ، وتفصيلات أحوالهم ، فقد استأثر سبحانه بها، وهذا من وسطية القرآن وحكمة الرحمان حيث سبحانه وتعالى

١- أنظر : الإيمان لمحمد نعيم ياسين : ٤٨ .

٢- انظر : البخاري مع الفتح، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل : ١/ ١٤٠.

يعـرف الناس فـي حدود مـا يحتـاجون إليـه ، ويصلـح أحوالـهم في المـعاش والمعـاد، وما تطيـقه عقـولهم فالـله سبحـانه وتعـالى لـم يطـلعنـا على جمـيع المغيـبات، سواء منهـا ما تعلق بـجلاله وصفاتـه وأسمائه وما تـعلق بمخلـوقاته الغيبيـة، والمؤمن الصادق يقر بكـل ما أخبر به الخالق مجـملاً أو مفصلاً ، ولا يزيد عـلى ذلك، ولا ينـقص منه ، ولا يتـكلف البحـث عن ما لا ينـفعه ولا يخوض فيه .[1] .

١- الإيمان : لمحمد نعيم ياسين : ٤٧ .

المبحث الأول

صفات الملائكة الخلقية

إن الخالق عز وجل لم يخبرنا من صفاتهم الخلقية إلا النزر القليل ، فأخبرنا سبحانه أنهم خلقوا قبل آدم ، إذ ورد في القرآن أن الله أخبرهم بأنه سيخلق الإنسان ، ويجعله في الأرض. قال تعالى : **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾**. (البقرة : ٣٠).

وأما المادة التي خلقوا منها ، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الله خلقهم من نور فقد أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم».[(١)] وتدل النصوص في مجموعها على أن الملائكة مخلوقات نورانية ليس لها جسم مادي يدرك بالحواس الإنسانية ، وأنهم ليسوا كالبشر فلا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا ينامون ، ولا يتزاوجون، مطهرون من الشهوات الحيوانية، ومنزهون عن الآثام والخطايا ، ولا يتصفون بشيء من الصفات المادية، التي يتصف بها ابن آدم.[(٢)]

١- اخرجه مسلم ،كتاب الزهد والرقائق ، باب أحاديث متفرقة :٤/٢٢٩٤

٢- شرح ملا علي القاري على الفقه الاكبر :١١

أ- لهم القدرة علي التشكل :

غير أن لهم القدرة على أن يتمثلوا بصور البشر ، بإذن الله تعالى كما أخبر الله عزوجل عن جبريل عليه السلام أنه جاء مريم في صورة بشرية ، فقال تعالى : ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾. (مريم : ١٦-١٧).

وفي حديث جبريل المشهور ، حين جاء يعلم الصحابة معنى الإسلام، والإيمان ، والإحسان ، وأشراط الساعة ، ذكرعمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه جاء على هيئة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، وأنه جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ثم شرع في السؤال .[(١)]

ب - لهم أجنحة :

ومن صفاتهم الخلقية التي أخبرنا الله بها أنه جعل لهم أجنحة يتفاوتون في أعدادها ، فقال سبحانه :﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾. (فاطر : ١) هذا ما أخبرنا به الله عز وجل عن الملائكة من حيث خلقتها ، ونؤمن به كما جاء ، ولا نسأل عن غيره ولو كان في التفصيل نفع لعباد الله لما حجب عنهم معرفته ،فهو اللطيف الرحيم بهم ، يعلمهم الحق والخير وهذا من حكمة القرآن وهدايته إلى الصراط المستقيم ووسطيته في الأمور.

١- انظر : البخاري مع الفتح، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل : ٢/ ١٤ .

المبحث الثاني

علاقتهم مع الله والإنسان، والكون، وعددهم

أ- علاقتهم مع الله :

فهي علاقة العبودية الخالصة ، والطاعة والامتثال، والخضوع المطلق لأوامره عز وجل، لا ينتسبون إليه سبحانه إلا بهذه النسبة، فهم ليسوا آلهة من دونه سبحانه، ولا ذرية له، ولا بنات كما قال المشركون من قبل قال تعالى ﴿وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً سبحانه، بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾. (الأنبياء : ٢٦-٢٨) وقال تعالى : ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾. (النحل : ٥٠) وقال تعالى : ﴿لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾. (التحريم : ٦).

فهم خلق من مخلوقات الله الكثيرة ، يطيعونه سبحانه ولا يقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم . وهم لا يستطيعون أن يقترحوا على الله شيئاً بفضل قوتهم ، وهم منقطعون دائماً لعبادة الله وطاعة أمره . قال تعالى : ﴿ومامنا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون﴾. (الصافات : ١٦٤-١٦٦).

وإذا كانت هذه حقيقة أمرهم فقد انحرف عن الصراط المسقيم ووقع في الشرك بالله من عبد أو استعان بالملائكة أو اعتقد أن لهم من الأمر شيء قال

تعالى : ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾. (آل عمران : ٨٠)

ب- علاقة الملائكة بالكون والإنسان :

دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة ، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه، وكل بالشمس والقمر ملائكة ، وبالأفلاك ملائكة، وبالجبال ملائكة، وبالسحاب ملائكة، وبالمطر ملائكة ، وبالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، وبالموت ملائكة ووكل بكل عبد ملائكة يحفظونه ووكل بكل مخلوق، وبكل حوادث الكون وظواهره ملائكة.[١]

وهذا لا ينافي ما يلاحظ في الكون من قوانين وأسباب يرتبط بعضها ببعض ؛ لأن هذه القوانين والأسباب إنما هي مخلوقات من مخلوقات الله ، والملائكة موكلة بها أيضاً ، وموكلة برعايتها ، كما ترعى المخلوقات الأخرى، ولولا إرادة الله في حفظ هذه الأسباب والقوانين ، ولولا قدرته في تسخير الملائكة للحفاظ عليها ، فإن العقل لايستلزم أبداً بقاءها على هذه الآماد الطويلة في انتظامها وتناسقها .[٢]

وأما الإنسان فيدخل بحياته الفطرية في تلك الرعاية التي وكل الله سبحانه الملائكة بها ، لأنه مخلوق من مخلوقات الله في الكون بل هو المخلوق الذي سخر الله له ما في الكون كله ، قال تعالى : ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولاكتاب منير﴾. (لقمان : ٢٠).

١- الإيمان لمحمد نعيم ياسين :٥٥

٢- الإيمان لمحمد نعيم ياسين :٥٥

وفوق هذا فإن للملائكة أعمالاً أخرى في حياة الإنسان الإرادية هدفها - كما حده الله لهم - هداية البشر، وإسعادهم، ومساعدتهم على عبادة الله، وعونهم على اختيار الهدى والصلاح، واجتناب الشر والفساد والضلال :

فهم الذين اختارهم رب العالمين لإيصال هداه إلى أهل الأرض عن طريق رسله الكرام والملك المختار لهذه المهمة هو جبريل عليه السلام، قال تعالى : ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾. (الشعراء : ١٩٢-١٩٤).

كما أخبرنا عز وجل أنه سخرهم للدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم ، فقال سبحانه : ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا، واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾. (غافر : ٧-٩).

وهم يشجعون العبد على طاعة ربه ، وعبادته ويحثونه بالذكر والقرآن، ويحثونه على العلم والخير ، ويحضرون صلاته وقراءته وفي ذلك كله أحاديث صحيحة .

وهم أيضا يثبتون العبد على العمل الصالح ، وخاصة الجهاد في سبيل الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق

واضربوا منهم كل بنان ﴾. (الأنفال :١٢).

ومن أعمالهم التي أخبرنا عنهارب العالمين مما له أثر عظيم في تقويم حياة العباد وحفظهم من المعصية والشر ، ما وكل إليهم من مراقبة أعمال العباد وكتابتها بعد إحصائها ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾. (ق : ١٦-١٨) وقال تعالى : ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين﴾. (الانفطار : ١١-١٢) وقال تعالى: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم، ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾. (الزخرف : ٨٠).

وقد وجدت كلاماً نفيساً جامعاً لابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) عن علاقة الملائكة بالإنسان. فقال : (والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره ، لهم وله شأن آخر : فإنهم موكلون بتخليقه ونقله من طور إلى طور ، وتصويره وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث ، وكتابة رزقه وعمله، وأجله وشقاوته ، وسعادته وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته ، وعرضها على خالقه وفاطره ، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ ، وبعد البعث ، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب ، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله والمعلمون له ما ينفعه ، والمقاتلون الذابون عنه، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة ، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه ، وينهونه عن الشر ، يحذرونه منه فهم أولياؤه وأنصاره، وحفظته ومعلموه ، وناصحوه ، والداعون له ، والمستغفرون له ، وهم الذين يصلون عليه مادام

في طاعة ربـه ، ويصلون عليـه ما دام يعلم النـاس الخير ، ويبشرونـه بكرامة الله في منامه وعند موته ويوم بعثه ، وهـم الذين يزهدونه في الدنيا ويرغبونه في الآخرة، وهم الـذين يذكرونه إذا نسي وينـشطونه إذا كسل ، ويثـبتونه إذا جزع، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته ، فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسـفراؤه بيـنه وبين عـباده تتـنزل بـالأمر من عـنده في أقـطار العـالم وتصعد إليه بالأمر). [1]

وكل الذي قال ابن القيم رحمه الله استنبطه من كتاب الله وما صح من الأحاديث عن رسول الله ﷺ .

ج -عدد الملائكة :

وهم كثر، لا يحصى عددهم إلا الله قال تعالى : ﴿وماجعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جلـعنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليـستيقن الذين أوتوا الكتـاب ويزداد الذين آمـنوا إيماناً ولا يـرتاب الذين أوتـوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فـي قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بـهذا مثلا ، كذلك يضل الله من يـشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جـنود ربك إلا هو وماهي إلا ذكرى للبشر﴾ . (المدثر : ٣١).

وهكذا منهج القرآن في بيان حقيقة الملائكة، فيه ملامح الوسطية بعيداً عن الغـلو والافراط والتفريـط والمطلوب من المؤمـن أن يؤمن بالملائكـة إيماناً تفصيلياً وإجمالياً ، فيجب عـليه الإيمان بالملائكة التـي وردت أسماؤهم في الـكتـاب أو الـسـنة بـالتـفصيـل ومن هـؤلاء رؤساؤهـم الثـلاثة جـبريـل ،

١- انظر : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان : ٢/ ١٢٥.

وميكائيل، وإسرافيل .[1]

وجبريل هو الملك الموكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح وقد ورد ذكره هو وميكائيل في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾. (البقرة : ٩٧-٩٨).

وجبريل عليه السلام عادته اليهود ظلماً وعدواناً وانتكاساً وبُعداً عن الصراط المستقيم ،أما الفلاسفة فأنكروا الملائكة جملة. وقد أثنى الله سبحانه عليه في القرآن أحسن الثناء ووصفه بأجمل الصفات، قال تعالى : ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾. (التكوير : ١٥-٢١) وقال تعالى في وصفه : ﴿علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى﴾. (النجم : ٥-٦).

وأما ميكائيل فهو الملك الموكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان.[2] وأما إسرافيل فهو : الملك الموكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.[3] ومن الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن مالك، خازن النار ، قال تعالى : ﴿ونادوا يا مالك ليقضي علينا ربك . .﴾ (الزخرف : ٧٧) فهؤلاء وغيرهم من ورد ذكر أسمائهم في أحاديث ثبتت صحتها يجب

١- الكواشف الجلية عن معاني الوسطية : ٣٦ .

٢- انظر : أصول الإيمان لمحمد بن عبدالوهاب .

٣- إغاثة اللهفان : ٢/ ١٢٢.

الإيمان بهـم ، وبما نيط بهـم من الوظائف والأعمـال ، وأما الملائكة الـذين لم يرد ذكـرهم ، فـيجب أن نـؤمن بهـم بصـورة إجمالـية ، ونؤمـن بما ذكـر من أصنافهـم، وأفعالهم في القرآن والـسنة فنؤمن بالـكرام الكاتبين الذين جـعلهم الله عـلينا حافـظين ، كما قال تـعالى : **﴿وإن عليكـم لحافظين كراماً كـاتبين يعلمون ما تفعلون﴾**. (الانفطار : ١٠-١٢).

كما قال تعالى : **﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾** . وذكرت بعض كتب التفسير أنهم اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعـمال ، صـاحب الـيمـين يكـتب الحـسنـات، وصاحـب الشـمال يـكتـب السـيئات، ومـلكان آخران يـحفظـانه ويحـرسانه واحد مـن أمامه وواحـد من ورائه، فهو بين أربعة ملائكة .

وروى الإمام مسـلم عن عبداللـه بن مسعـود رضي الله عنـه قال : قال رسول الله ﷺ : «مامنـكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه مـن الجن وقرينة من الملائكة ، قالوا : وإيـاك يارسول الله ؟ قال : وإياي ، لكن الله أعـانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير».[1]

ونؤمـن بملك المـوت الموكل بـقبـض أرواح العالمـين قال تعـالى : **﴿قل يتوفاكـم ملك الموت الذي وكل بـكم ثم إلى ربكم تـرجعون﴾**. (السجدة : ١١) ولـم يصرح القرآن باسمه، والأحاديث الصحيحة، وجاء في بعض الآثار تسميته بعزرائيل[2] فالله أعلم .

١- مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان : ٢٦١٧/٤

٢- أصول الإيمان لمحمد بن عبدالوهاب : ١٤

ونؤمن بحملة العرش ، الذين أخبر عنهم الله في القرآن فقال سبحانه : ﴿والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ . (الحاقة : ١٧)

ونؤمن كذلك بالملائكة الموكلين بالنار ، أعاذنا الله منها ، وهم الزبانية، ومقدموهم تسعة عشر قال تعالى : ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ . (غافر :٤٩) قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ . وقال تعالى : ﴿عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ .

ونؤمن أيضا بالملائكة الموكلين بالجنان الذين يهيئون الضيافة لساكنيها ،من ملابس ومآكل ومشارب ومصنوعات وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر . وإذا أردت أن تعرف ما صح عن رسول الله عن الملائكة فيمكنك أن ترجع إلى صحيح البخاري .

وبذلك يكون القرآن الكريم قد رسم لنا منهج الوسطية في إيماننا بالملائكة، وهذا يبعدنا عن الوقوع في الخرافات والأوهام التي وقع فيها من لا يؤمنون بالغيب ، ولا يتلقون معارفهم عن الوحي الإلهي .وبهذا المعتقد يكون المسلم على منهج الاستقامة الذي أمر الله به وعلى الصراط المستقيم، فإن من يستشعر بقلبه وجود الملائكة جنود الرحمن ،ويؤمن برقابتهم لأعماله وأقواله، وشهادتهم على كل ما يصدر عنه ، يستحى من الله ومن جنوده ، فلا يخالفه ولا يعصيه ، لا في العلانية ، ولا في السر إذ كيف له ذلك وهو يعلم أن كل شيء محسوب ومكتوب ومشهود عليه .

وإيمانه بالملائكة الكرام يكسبه الصبر على مواصلة الجهاد في سبيل الله وعدم اليأس ، والشعور بالأنس والطمانينة التي هي من لوازم الإيمان بالملائكة وما أخبر الله من أفعالها وأحوالها وبهذا يتضح لنا أن من نعم الله علينا خلقه للملائكة وأخباره لنا عما ينفعنا في معتقدنا في هذه المخلوقات الطائعة العابدة لله عزوجل .

وأسأل الله تعالى أن تكون صورة الإعتقاد في الملائكة قد اتضحت ملامحها من استقامة على الطريق وسلامة في التصور وعمق في المنهج وحكمة في خلقها واعتدال في وضعها وعدل في حقيقتها بعيدة عن الغلو والإفراط والتفريط والإنكار .

الفصل الرابع

الكتب السماوية

تمهيد : إن من أركان الإيمان الاعتقاد بالكتب السماوية وإنها من عند الله سبحانه وتعالى، إلا أن هناك من البشر من أنكر الكتب السماوية جملة وهم الملاحدة، وهناك من حرف الكتب السماوية وأضاف إليها ما لم ينزل الله به من سلطان، وهم اليهود والنصارى وقعوا في الغلو وفي الإفراط وابتعدوا عن الصراط المستقيم، وقد اتضح ذلك عندما تكلمنا عن منهج الوسطية في توحيد الله وأسمائه وصفاته، حيث رأينا ما وقع فيه اليهود من التحريف، وما وقعت فيه النصارى كذلك، وقد وضح الله سبحانه وتعالى ما وقع فيه أهل الكتاب من التحريف والتبديل.

المبحث الأول

تحريف اليهود وتزويرهم

أما اليهود فقد تفننوافي التزوير، وأضافوا في كتابهم المقدس وحذفوا منه واتبعوا كافة الأساليب الشيطانية وقد بين الله في كتابه العزيز أنواعاً من تحريف اليهود للتوراة :

أولاً : إلباس الحق بالباطل :

كان بنو إسرائيل يخلطون الحق بالباطل، بحيث لا يتميز الحق من الباطل، وقد سجل القرآن الكريم هذا الجرم عليهم، قال سبحانه : **﴿يابني إسرائيل أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون، وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾**. (البقرة : ٤٠-٤٢) وقال سبحانه : **﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل﴾**. (آل عمران : ٧١).

ومن أبلغ الصور وأقبحها في إلباس الحق ادعاء الكهنة والأحبار - في التوراة التي بأيديهم - **أن** هارون عليه السلام هو الذي جمع الذهب من بني إسرائيل واشترك معهم في صناعة العجل الذهبي ، ووافقهم على عبادته من دون الله ، وفي الوقت نفسه يبرئون السامري ، فهارون الذي تحمل المشاق عليه الصلاة والسلام في سبيل إقناع فرعون بالتوحيد جعلوه داعية الشرك والكفر ، ولكن القرآن الكريم كان لهذه الدعوى بالمرصاد ، فكذبهم ، وبين

حقيقة الأمر[1].

قال تعالى : ﴿**فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى . . .**﴾. إلى قوله تعالى : ﴿**ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى**﴾. (طه : ٨٧-٩١).

فهذا هو الصدق حقاً إنما عمل لهم العجل السامري ، أما هارون فنهاهم ولكنهم عصوه وكادوا يقتلونه .

النوع الثاني : من التحريف كتمان الحق :

لا شك أن الله حق ، ولا يقول إلا حقاً ، والتوراة التي أنزلت على موسى كلها حق ؛ لأنها كلام الله تعالى ؛ ولكن بني إسرائيل كانوا يكتمون الحق قاصدين بذلك إخضاع كتاب الله لأهوائهم وشهواتهم ، فالآيات التي يرون فيها منفعة لهم عاجلة أو تكون في جانب حجتهم يقرونها ، وأما الآيات التي يرون أن فيها دليلاً عليهم فيكتمونها، ولهذا سجل الله عليهم هذا الكتم في كتابه فقال سبحانه : ﴿**يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون**﴾. (آل عمران : ٧١).

ومن أعظم ماكتمه أهل الكتاب هو ما وجدوه في كتبهم من صفات محمد ﷺ واختيار الله له رسولا إلى الناس أجمعين وقد كانوا يعرفونه في كتبهم كما يعرفون أبناءهم ولكنهم إذا سئلوا عن ذلك كتموا[2].

١- انظر : الفصل لابن حزم : ٢٥٦/١

٢- انظر : تفسير البغوي : ٣١٥،١٦٢،٦٧/١

قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ . (البقرة: ١٤٦)، ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون﴾ . (الأنعام : ٢٠).

وقد بين عزو جل صفاته ﷺ الكاملة في التوراة والإنجيل فقال عزوجل : ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآيتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ . (الاعراف : ١٥٦-١٥٧) ومع هذه الأوصاف العظيمة التي كانوا يعرفونها مكتوبة عندهم أنكروا نبوته ﷺ وكتموا ما علموه.

النوع الثالث : إخفاء الحق :

وقد كان أهل الكتاب يخفون من أحكام التوراة الشيء الكثير ، قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قدجاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ . (المائدة : ١٥) ومن الأحكام التي أخفاها اليهود حكم رجم الزاني والمحصن ، فقد جاؤوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا ، فقال لهم : «كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟ قالوا : نحممهما ونضربهما . فقال : لاتجدون في التوراة الرجم ؟ فقالوا : لا نجد فيها شيئاً . فقال لهم عبدالله بن سلام كذبتم ، فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فوضع مدارسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم ، فطفق يقرأ مادون يده وما وراءها ، ولا يقرأ أيه الرجم ، فنزع يده

عن آيه الرجم ، فقال ما هذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا : هي آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. . . الحديث». [1]

ولهذا قال سبحانه : ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا . . . إلى قوله : وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾. (المائدة : ٤١-٤٣).

وقال : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾. (آل عمران : ٢٣).

فأنكر سبحانه على أهل الكتاب المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم التوراة والإنجيل ، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ص تولوا وهم معرضون عنهما وهذا في غاية ما يكون من ذمهم. [2]

النوع الرابع : ليُّ اللسان :

من أنواع تحريف اليهود للتوراة : لي اللسان ، فهم يلوون ألسنتهم ويعطفونها بالتحريف ، ليلبسوا على السامع اللفظ المنزل بغيره ، ويفتلون ألسنتهم حين يقرؤون كلام الله تعالى لإمالته عما أنزله الله عليهم إلى اللفظ الذي يريدونه قال تعالى : ﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عندالله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾. (آل عمران : ٧٨).

١- البخاري مع الفتح، كتاب التفسير، سورة آل عمران باب : قل فاتو بالتوراة :٨/ ٢٢٤.

٢- انظر : تفسير ابن كثير : ١/ ٣٥٦.

ومن التحريف بلي اللسان ما كان يفعله اليهود مع رسول الله ﷺ بقولهم : ﴿واسمع غيرمسمع﴾ ويقصدون معنى اسمع لا سمعت ،أي يدعون على النبي ﷺ وقد كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ راعنا ، من المراعاة والمعنى فأرع سمعك لكل منا ، فلما سمع اليهود هذه اللفظة اغتنموا الفرصة في التحريف ، لأن معناها عندهم السب والطعن بمعنى يا أحمق[1] ولكن الله عزوجل كشف سترهم فقال : ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾. (النساء : ٤٦).

ونهى الله المؤمنين عن صفات اليهود فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾. (البقرة : ١٠٤).

النوع الخامس : تحريف الكلام عن مواضعه :

أثبت الله عز وجل على أهل الكتاب هذا النوع من التحريف فقال عزوجل : ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه . . .﴾ (النساء : ٤٦) ﴿فبما نقضهم ميثقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به . . .﴾. (المائدة : ١٣).

وقال عزوجل : ﴿ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه . .﴾. (المائدة : ٤١) وهذا النوع من التحريف له أربع صور كالتالي :

١- انظر : تفسير البغوي : ١/ ١٠٢، ٤٣٨

١- تحريف التبديل : وهو وضع كلمة مكان كلمة، أو جملة مكان جملة.

٢- تحريف بالزيادة : ويكون بزيادة كلمة أوجملة .

٣- تحريف بالنقص : وهو إسقاط كلمة أو جملة من الكلام المنزل على موسى عليه السلام.

٤- تحريف المعنى : تبقى الكلمة أو الجملة كما هي ولكنهم يجعلونها محتملة لمعنيين ، ثم يختارون المعنى الذين يتفق مع أهوائهم وأعراضهم.[١] وهذه الصورة لها أمثلة كثيرة من التوراة لا يتسع المقام لذكرها.[٢]

ومن رحمة الله تعالى وكرمه أنه عندما ذكر ما فعلوه من العظائم دعاهم إلى التوبة ، فقال تعالى : ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً﴾. (النساء : ٤٧) فلوآمنوا بالله وملائكته وجميع كتبه ورسله لكفر عنهم سيئاتهم وأدخلهم الجنة.[٣]

قال تعالى :﴿ولو أن أهل الكتب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾. (المائدة :٦٥-٦٦) ﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾. (آل عمران : ١١٠).

١- التوراة دراسة وتحليل للدكتور، محمد شلبي شتيوي : ٨٣.

٢- انظر : اغاثة اللهفان : ٢/ ٣٤٢-٣٤٤.

٣- انظر : تفسير السعدي : ٣١٩.

المبحث الثاني

تحريف النصارى للإنجيل

وأما النصارى فقد حرفوا الإنجيل وبذلك ابتعدو عن الصراط المستقيم وإليك ما يثبت التحريف في الأناجيل :

أولاً : النتيجة التي لا مفر من التسليم بها أن الأناجيل القانونية الموجودة الآن ما هي إلا كتب مؤلفة ، وهي تبعا لذلك معرضة للخطأ والصواب ، ولا يمكن الادعاء ولو لحظة أنها كتبت بإلهام ؛ فلقد كتبها أناس مجهولون ، في أماكن غير معلومة ، وفي تواريخ غيرمؤكدة ، والشيء المؤكد أن هذه الأناجيل مختلفة غير متآلفة ، بل إنها متناقضة مع نفسها ، ومع حقائق العالم الخارجي ، لأنها فشلت في تنبؤات كثيرة ، كالقول بنهاية العالم، وهذا القول قد يضايق النصراني العادي ، بل قد يصدمه ؛ ولكن بالنسبة للعالم النصراني فقد أصبح ذلك عنده حقيقة مسلم بها[1] لما أجراه من أبحاث ، ولما علم من واقع الإنجيل.

ثانياً : الشواهد على التحريف من الأناجيل :

أ-جاء في إنجيل مرقس : ان المسيح قال لتلاميذه : (اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها ، من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدان، وهذه الآيات تتبع المؤمنين يخرجون الشياطين باسمي ، ويتكلمون بألسنة جديدة، يحملون حيات ، وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم ،

١- انظر : المناظرة بين الإسلام والنصرانية :٣٥-٥٠.

ويضعون أيديهم على المرضى فيبرؤون).[1]

ففي هذا النص حجة على النصارىٰ من وجهين :

الوجه الأول : قولهم عن عيسى إنه أمرهم أن يبشروا بالإنجيل فدل ذلك على أن إنجيلاً أتاهم به وليس هوعندهم الآن ، وإنما عندهم أربعة أناجيل متغايرة ، وليس منها إنجيل ألف إلا بعد رفع عيسى عليه السلام بأعوام كثيرة، فصح أن ذلك الإنجيل الذي أخبر المسيح أنه أتاهم به وأمرهم بالتبشير به ذهب عنهم ؛ لأنهم لايعرفون له أصلاً ، وهذا ما لا يمكن سواه .

الوجه الثاني : قولهم إنه وعد كل من آمن بدعوة التلاميذ أنهم يتكلمونْ بلغات لا يعرفونها ، وينفون الجن عن المجانبين ، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرؤن ويحملون الحيات ، وإن شربوا شربة قتالة لا تضرهم، وهذا وعد ظاهر الكذب ؛ فإن ما من النصارى أحد يتكلم بلغة لم يتعلمها، ولا منهم أحد ينفي جنياً ، ولا من يحمل حية فلا تضره ، ولا من يضع يده على مريض فيشفى ، ولا منهم أحد يسقى السم فلا يضره، وهم معترفون بأن يوحنا - صاحب الإنجيل - قتل بالسم وحاشا لله أن يأتي نبي بمواعيد كاذبة ، وهذا دليل على تحريف النصارى وتناقضهم وتكذيبهم أنفسهم).[2]

ب - ومن ذلك ما جاء في إنجيل متى أن عيسى عليه السلام دعا على شجرة تين خضراء فيبست التينة في الحال ، فتعجب التلاميذ من ذلك ، فقال لهم عيسى : (الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان ، ولا تشكوا أمر التينة فقط ،

١- انظر : الفصل لابن حزم ١٣٩/٢ وعزاه المحقق إلى انجيل مرقس ، والإصحاح : ١٦/ ١٥-١٨

٢- انظر : الفصل لابن حزم : ١٣٩/٢ .

بل إن قلتم أيضا لهذاالجبل انتقل وانطرح في البحر فيكون).[1]

وهذا فيه حجة على النصارى ، وذلك أن الأمر لا يخلو من أن يكون النصارى مؤمنين بالمسيح عليه السلام ، أو غير مؤمنين ، فإن كانوا مؤمنين ، فقد كذبوا المسيح فيما نسبوه إليه في هذه المقالة - وحاشا له من الكذب - فليس منهم أحد قدر على أن يأمر حبة من خردل بالانتقال فتنتقل ، فكيف على قلع جبل وإلقائه في البحر . وإن كانوا غير مؤمنين به فهم بإقرارهم هذا كفار ، ولا يجوز أن يصدق كافر .[2]

وبهذا يتبين أن الأناجيل وقع فيها تحريف عظيم ، ولا يعتمد عليها ، ولا مخرج من هذا التيه إلا بالدخول في الإسلام وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه ما اقترفه النصارى وما أدخلوه على حقيقة النبوة ، من تأليه جماعة منهم لعيسى ابن مريم ، وقول بعضهم بالتثليث ، قال تعالى : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هوالمسيح ابن مريم . .﴾. (المائدة :٧٢). وقال تعالى : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهو عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾. (المائدة :٧٣) فجاء القرآن الكريم ، وبين هذا التحريف ، وبين العقيدة السليمة عن عيسى وأمه ، فقال تعالى : ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقه كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾ .(المائدة :٧٥) والحق الذي لا يماري فيه منصف أنه لا يوجد اليوم على ظهر الأرض كتاب تصلح نسبته إلى الخالق تبارك وتعالى سوى

١- انظر : الفصل لابن حزم : ١٣٩/٢ .

٢- المرجع السابق : ٩٨/٢

القرآن الكريم ومن وسطية القرآن في ركن الكتب السماوية بيانه ما وقع فيها من الانحراف والابتعاد عن الصراط المستقيم وأعطانا القول الفصل في هذا المجال ولم يترك ما يفيدنا وينفعنا فيما يتعلق بهذا الشأن وغيره .

فبين سبحانه وتعالى أن التوراة أصلها من عند الله وحدث فيها التحريف بسبب أحبارهم ورهبانهم قال تعالى : ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ . (المائدة : ٤٤)

وبين سبحانه وتعالى أن الإنجيل أصله من عند الله إلا أن علمائهم حرفوه قال تعالى : ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ . (المائدة : ١٤-١٥)

وأخبر سبحانه وتعالى أن الزبور أنزلها على داود عليه السلام فقال تعالى : ﴿وربك أعلم بمن في السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً﴾ . (الأسراء :٥٥) وأخبرنا سبحانه عن الصحف التي أنزلها على إبراهيم وموسى التي أخبر الله عنها بقوله : ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى

ربك المنتهى﴾. (النجم : ٣٦-٤٢).

قال تعالى : ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾. (الأعلى : ١٤-١٩).

وأما الكتب الأخرى التي نزلت على سائر الرسل ، فلم يخبرنا الله تعالى عن أسمائها ، وإنما أخبرنا سبحانه أن لكل نبي أرسله الله ، رسالة بلغة قومه ، فقال : ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

فمن حكمة الله أنه بين لنا ما يفيدنا في دنيانا وآخرتنا فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التي لم تُسمَّ إجمالاً ، ولايجوز لنا أن ننسب كتاباً إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه مما أخبرنا عنه في القرآن الكريم.

المبحث الثالث

وسطية القرآن بين الكتب السماوية

ومن وسطية القرآن في باب الإيمان بالكتب السماوية بيانه أن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى وتوحيد الله سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، وأن ما نسب إليهما يخالف ذلك إنما هومن تحريف البشر وصنعهم.

ومن وسطية القرآن ما ميزه الله وخصه به عن سائر الكتب المقدسة التي سبقت نزوله من الكتب المنزلة من أهمها :

أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلهية ، وجاء مؤيداً ومصدقاً لما جاء في الكتب السابقة من توحيد الله ، وعبادته ، ووجوب طاعته ، وجمع كل ما كان متفرقاً في تلك الكتب من الحسنات والفضائل ، وجاء مهيمناً ورقيباً عليها ، يقر ما فيها من حق ، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير[1] قال تعالى : **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾**. (المائدة : ٤٨).

ومن وسطية القرآن أنه جاء بشريعة عامة للبشر فيها كل ما يلزمهم لسعادتهم في الدارين ، نسخ بها جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام

١- انظر : الإيمان لمحمد ياسين : ١٠٠.

السابقة وأثبت فيها الأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان . إن القرآن الكريم هو الكتاب الرباني الوحيد الذي تعهد الله بحفظه فقال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾. (الحجر: ٩) وقال تعالى: ﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾. (فصلت : ٤١-٤٢).

والقرآن الكريم أنزله على رسوله محمد ص للناس كافة ، وليس خاصا بقوم معينين ،كما كانت تنزل الكتب السابقة فكان حفظه من التحريف ، وصيانته من عبث الناس ، ليبقى ما فيه حجة الله على الناس ، قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

بعكس الكتب الأخرى ، فقد وجه الكلام في كل واحد منها إلى أمة خاصة دون سائر الأمم ، وهي وأن اتفقت في أصل الدين إلا أن ما نزل فيها من الشرائع والأحكام كان خاصاً بأزمنة معينة وأقوام معينين قال تعالى : ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾. (المائدة : ٤٨).

لذلك لم يتعهد الله سبحانه بحفظ أي منها على مدى الدهور والأيام والأزمان كما هو الحال بالنسبة للقرآن ، وقد تكلمت عن أوجه الخيرية للقرآن الكريم في باب ملامح الوسطية.

وبهذا أرجوا من الله العلي العظيم أن أكون قد وفقت في بيان وسطية القرآن بالنسبة للكتب السماوية.



الفصل الخامس

وسطية القرآن في أنبياء الله ورسله

تمهيد : لقد كان من أعظم نعم الله عز وجل على عباده أن بعث فيهم رسلاً منهم يعرفون نسبهم وأخلاقهم ، اختارهم من خيارهم واصطفاهم من أوسطهم مكانة ونسباً ، يدعون قومهم إلى خير ينفعهم في دنياهم وأخراهم وينهونهم عن كل ما فيه هلاكهم وضررهم في دنياهم وأخراهم ، يدعونهم إلى عبادة الله وحده واتباع أوامره واجتناب نواهيه ويحذرونهم من الشرك بالله ومعصيته ، ومخالفة أوامره وارتكاب نواهيه - فما من أمة إلا خلا فيها نذير ، وبعث إليها رسلاً أو رسولاً ، وذلك رحمة من الله بعباده ، ولئلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير يقول في ذلك تبارك وتعالى : ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾. (النحل :٣٦) ويقول الله عزوجل : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ .(النساء : ١٦٢-١٦٣).

فبين سبحانه أنه أرسل رسله إلى عباده مبشرين ومنذرين ، فمن عصاهم فله أليم العذاب والعقوبة ، لئلا يحتج من كفر بالله وعبد الأنداد أو ضَلَّ عن سبيله بأن يقول إن الله أراد عقابه : ﴿لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾. (طه :١٣٤). ولقد بلغ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ما أرسلوا به ، ونصحوا لأممهم غاية النصح ، وبينوا لهم أوضح بيان وأجلاه ، ما يجب عليهم في دينهم ودنياهم ، وما أعد الله لأهل طاعته من ثواب ، ولأهل معصيته من عذاب ، وسلكوا في تبليغ قومهم رسالات ربهم كل مسلك فدعوهم ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ولم يسألوهم على ذلك أجراً . بل تحملوا في سبيل نصحهم وهدايتهم ألوان الشدائد وضروب المتاعب والأذى .[1]

ولقد تباينت مواقف الأمم تجاه أنبيائهم ورسلهم، ما بين مؤمن بهم متبع لهم ، وبين كافر بهم مؤذ لهم ، وبين غال فيهم منزل لهم فوق المنزلة التي أنزلهم الله إياها ، وفي هذا المبحث سنعرض لموقف اليهود والنصارى والمسلمين في أنبياء الله ورسله . وإنما اخترنا هذه الأمم من بين سائر الأمم ، لكونها أكثر الأمم أنبياء ورسلاً ، ولكونهم أهل كتب سماوية نزلت إليهم ، ولكونهم آخر ثلاث أمم أرسل إليها رسل أدرك بعضها بعضاً.

١- انظر : وسطية أهل السنة بين الفرق : ٢٥٦.

المبحث الأول

موقف اليهود من أنبياء الله ورسله

لقد كان ليهود من أنبياء الله ورسله مواقف شائنة مخزية تنبىء عن خبث في الطوية ، وفساد في السيرة والسريرة ، واتباع للنفس والهوى ، وإعراض عن الحق والهدى. وإذا نحن أجلنا النظر في كتاب الله عز وجل ، تحصل لنا أن مواقف اليهود من رسل الله تتلخص في الأمور التالية :

الأمر الأول : أنهم فرقوا بين رسل الله ولم يؤمنوا بهم جميعاً بل آمنوا ببعض وكفروا بالبعض الأخر (بمجرد التشهي والعادة ، لا عن دليل قادهم إلى ذلك ، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصبية).[1]

ومن أعظم الرسل الذين كفروا بهم وكذبوا برسالتهم ، عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، على أنهم كذبوا وكفروا بأنبياء أخرين غيرهما بدليل قتلهم لكثير من أنبيائهم كما سيأتي وقد عد الله من يؤمن ببعض الرسل ويكفر بالبعض الأخركافراً ، بل هو الكافر حقاً فقال : **﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض.ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾**. (النساء : ١٥٠-١٥١).

قال الإمام ابن جرير في تفسير هذه الآية : **﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾** ؛ يعني أنهم يقولون نصدق بهذا ونكذب بهذا ، كما فعلت

١- تفسير ابن كثير : ٢/٣٩٦.

اليهود في تكذيبهم عيسى ومحمد ﷺ وتصديقهم بموسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم وكما فعلت النصارى من تكذيبهم محمداً ﷺ وتصديقهم عيسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم.[1]

الأمر الثاني : أنهم خذلوا أنبياءهم ولم يقوموا بنصرهم ، وقد أخذ الله عليهم ميثاقهم لينصرنهم فقال : ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾. (المائدة : ١٢).

قال الحافظ ابن كثير : (أي : نصرتموهم وآزرتموهم على الحق).[2] فلم يفوا بميثاقهم ، وما لبثوا أن قالوا لموسى عليه السلام لما قال لهم : ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾. (المائدة : ٢١) ﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾. (المائدة : ٢٤).

ثم مالبثوا أن أعلنوا خذلانه ، وعدم القتال معه ، وخلوا بينه وبين عدوه فـ ﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إناها هنا قاعدون﴾. (المائدة : ٢٤) فكان جزاءهم التيه في الأرض أربعين سنة ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾. (المائدة : ٢٦).

٢- جامع البيان : ٩/ ٣٥١.

٣- تفسير القرآن العظيم : ٣/ ٦٢.

الأمر الثالث : أنهم تنقصوا بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ورموهم بارتكاب كبائر الذنوب ، وألصقوا بهم كل رذيلة ومن ذلك.

١- ما نسبوه إلى هارون عليه السلام من أنه صنع لهم العجل ، الذي عبدوه من دون الله جاء في (سفر الخروج) :

(ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل ، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ؛ لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ، فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها ، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً ، فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر ، فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ونادى هارون وقال : غداً عيد للرب فبكروا في الغيد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب).[1]

هكذا يصور هذا السفر نبياً عظيماً من أنبياء الله بعثه ليدعوا الناس إلى توحيد الله - في صورة صانع للأصنام ، مغر لقومه بعبادته من دون الله عز وجل. ونحن نقطع بأن هذا النص مما كتبه اليهود بأيديهم وقالوا هو من عندالله وما هو من عند الله ، وأنه (ليدل على أن محرري هذه الأسفار لا يرعون لأنبيائهم حرمة ولا يرجون لهم وقاراً ولا يتورعون عن أن ينسبوا إليهم آية نقيصة حتى خيانة الرسالة نفسها التي بعثوا من أجلها ودفع قومهم إلى

١-الكتاب المقدس، العهد القديم سفر الخروج، الإصحاح ٣٢ فقرة (١-٦).

الشرك بالله).[1]

ولقد ذكر الله في القرآن الكريم قصة عبادة اليهود للعجل ، وبين أن الذي صنع العجل وأغراهم بعبادته هو السامري وليس هارون عليه السلام ، بل أخبر عزوجل أن هارون عليه السلام حذر قومه من ذلك ولكن القوم لم يلتفتوا إلى تحذيره وعصوه ، وخالفوه إلى ما نهاهم عنه فقال عزوجل : ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ، قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري ، فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾ . (طة :٨٣-٩١).

فهذه الآيات تنطق في وضوح ببراءة هارون عليه السلام مما نسبه إليه اليهود ، وتشهد بافترائهم وكذبهم وتقولهم على الله عز وجل ورسله ألا بئس ما يزرون . ورموا نبي الله الأواب سليمان عليه السلام بأنه في أواخر أيامه مال إلى ممالأة نسائه على عبادة الأوثان وبنى لآلهتهن المعابد وأن قلبه مال معهن إلى هذه الآلهة ولم يكن ذلك مخلصاً في إيمانه بربه عز وجل وتجد ذلك

١- انظر : الاسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام للدكتور على عبدالواحد : ٤٦ .

في (سفر الملوك الأول) من كتبهم المقدسة.[1]

فهذا سليمان النبي الكريم الذي لم يقر ملكة سبأ وقومها على عبادة الشمس والقمر من دون الله ، وبذل ما في وسعه لهدايتهم إلى عبادة الله رب العالمين ، فأظهر لها من آيات الله التي أتاه ما حدا بها إلى الهداية والإسلام فقالت : ﴿رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ . (النمل : ٤٤) ومع ذلك ينسب إليه اليهود الميل إلى عبادة الأصنام والإذعان لرغبة نسائه في ذلك، سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم.

٢- نسبتهم لبعض الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام شرب الخمر وارتكاب فاحشة الزنى والقتل فنسبوا إلى أبي الأنبياء نوح عليه السلام أنه شرب الخمر حتى سكر وثمل وانكشفت سوءته ذكر ذلك في (سفر التكوين)[2] هكذا يصور كتاب اليهود المقدس نوحاً عليه السلام الذي مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، في صورة فاسق لا يفيق من السكر ، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

ونسبوا إلى نبي الله لوط عليه السلام الزنى بابنتيه ، فقالوا : إن ابنتيه تآمرتا عليه وأسقتاه خمراً حتى ثمل وزنى بهما وحملتا منه ذكر ذلك في سفر التكوين.[3] وهذا نبي الله الملك الصالح داود عليه السلام تنسب إليه التوراة المزعومة الزنى بإحدى زوجات قائد من قواد جنوده فخشي افتضاح أمره فاحتال بقتله ، وتزوج امرأته من بعده ثم ذكروا أن داود طلب عودة أوريا

١- انظر : سفر الملوك الأول إصحاح ١١ فقرة ٤- ١٠

٢- وسطية أهل السنة بين الفرق : ٢٦٦

٣- انظر : سفر التكوين، الاصحاح ١٩ فقرة ٣٠- ٣٧

زوج المرأة المزعومة من المعركة ليقيم مع زوجته.

في محاولة من داود لإخفاء جريمته ونسبة الحمل لأوريا، ولكن أوريا لم يدخل على أهله، ولما يئس منه داود كتب إلى قائده يأمره بأن يجعل أوريا في مقدمة الجيش والتراجع عنه عند اشتداد الخطر ليهلك ذكر ذلك في (سفر صموئيل الثاني)[1].

فانظر رحمك الله كيف صوروا نبياً كريماً بهذه الصورة المزرية ، فلم يكفهم نسبة الزنى إليه ، حتى جعلوه متآمراً على القتل ، بل آمراً به .[2]

الأمر الرابع : أنهم قتلوا بعض أنبيائهم :

لقد سجل الله عليهم في القرآن الكريم هذا الموقف المشين من أنبيائهم في غير ما آية ، مقرعاً لهم وموبخاً على هذا الصنيع القبيح ، والجرم العظيم الذي ارتكبوه بحق من أرسل لهدايتهم وبعث لإرشادهم إلى صراط الله المستقيم ، من أنبياء الله ورسله قال تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾. (البقرة :٨٧).

وقال عزوجل : ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾. (المائدة : ٧٠) فاستجلبوا بهذا الموقف المخزي غضب الله عز وجل ومقته

١- سفر صموئيل الثاني : إصحاح ١١ فقرة ١٤- ١٦.

٢- انظر : وسطية أهل السنة :٢٦٨

وسخطه واستوجبوا عذابه ونقمته : ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانو يعتدون﴾ (البقرة : ٦١) ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾. (آل عمران : ٢١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال :(كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ، ثم يقيمون سوقاً بقتلهم في آخر الزمان). [١] ومن أعظم الأنبياء الذين قتلوهم زكريا وابنه يحي عليهما السلام ، فقد أخرج الحاكم[٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عزوجل : ﴿ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾. (آل عمران :١٥٧-١٥٨).

بعث عيسى بن مريم في أثني عشر رجلاً من الحواريين يعلمون الناس فكان ينهاهم عن نكاح ابنة الأخ وكان ملك له ابنه أخ تعجبه فأرادها وجعل يقضي لها كل يوم حاجة فقالت لها أمها إذا سألك عن حاجتك فقولي له : أن تقتل يحيى بن زكريا ، فقال لها الملك ، حاجتك فقالت حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريا فقال : سلي غير ذلك فقالت لا أسأل غير هذا ، فلما أتى أمر به فذبح . . .).

وذكر الإمام ابن جرير[٣] وغيره قتل بني إسرائيل زكريا عليه السلام كما قتلوا ابنه يحيى ، وقد أجمعوا على قتل المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ،

١- انظر ابن كثير في تفسيره : ١/١٤٦

٢- هو أبوعبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري توفي ٤٠٥هـ من أكبر علماء الحديث .

٣- انظر : جامع البيان : ٦/ ٢٨٤.

ولكن الله حفظه من كيدهم ، ورفعه إليه ، وألقى شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدون أنهم قتلوا المسيح عليه السلام ، كما ذكر ذلك عنهم الحق تبارك وتعالى : ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾. (النساء : ١٥٧-١٥٨).

ويبدو أن هذا الخلق ظل ملازماً لهم تجاه أنبياء الله ورسله ، ولم يكن ذلك منهم مع أنبيائهم فقط ، فقد حاولوا قتل نبينا محمد ﷺ ، فدسوا له السم صلوات الله عليه وسلامه بغية قتله ، وحاول بنو النضير اغتياله بإلقاء الصخرة عليه[١] جريا على عادتهم في الخبث والكيد لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه : «إن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة ، فأكل منها فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك ؟ فقالت : أردت لأقتلك قال : ما كان الله ليسلطك على ذاك - قال - أو قال : عليّ قال : قالوا : ألا تقتلها ؟ قال لا قال فما زلت أعرفها في لهوات[٢] رسول الله ﷺ». [٣] وتشير بعض الروايات إلى أن النبي ﷺ مات وهو يجد أثر سم اليهود له ، ففي حديث عائشة رضي الله عنها «كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه : يا عائشة : ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر ، فهذا أوان أنقطاع أبهري

١- انظر : ابن هشام السيرة : ٢/ ١٩٠.

٢- لهوات : جمع لهاة وهي اللحمة في سقف أقصى الفم .

٣- البخاري : كتاب الهدية ، باب قبول الهدية من المشركين : ٥/ ٢٣٠ رقم الحديث : ٢٦١٧.

من ذلك السم». [1]

وبعد : فهذا هو موقف يهود من رسل الله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ؛ إيمان ببعض وكفر ببعض ، وتنقص منهم وإيذاء ، وسب ، وشتم ، وقذف بإرتكاب جرائم السكر والعربدة ،والزنى والقتل ، ثم تشريد ومطاردة وقتل لبعضهم وهي مواقف تدل على مبلغ تفريط القوم وبعدهم عن الوسطية وعن الصراط المستقيم وعن العدل والاستقامة في حق أنبياء الله ورسله ، وعظم تقصيرهم وشدة جفائهم وعداوتهم وبما غلوا وأفرطوا في حق بعض أنبيائهم ، وأنزلوهم فوق مكانة النبوة والرسالة ، كماوقع منهم في حق العزير عليه السلام إذ قالوا إنه ابن الله كما ذكر الله عزوجل ذلك في قوله : **﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾**. (براءة : ٣٠).

ومن مظاهر غلوهم اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد ، كما أخبر المصطفى ﷺ بذلك ولعنهم لأجله فقال : «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». [2] وفي حديث آخر قال ﷺ : «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». [3] فالقوم كان لديهم غلو في بعض أنبيائهم ، لكن لما كان الغالب عليهم الجفاء والتفريط في هذا الجانب ظن بعض الناس أنه لم يقع منهم غلو ، لكثرة ماورد في القرآن من نسبة قتل الأنبياء وتكذيبهم إليهم ، بل ربما لهوى في نفوس البعض ، حاول التشكيك في الأحاديث

١- البخاري : كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ : ١٣١/٩.

٢-٣- البخاري : كتاب الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور : ٥٣٢/١.

التي أشرنا إليها وأوهم أنها تعارض ما جاء في القرآن من ذكر جفائهم للأنبياء ، وغفل أو تغافل عن أن القرآن الكريم كما جاء فيه نسبة التفريط إليهم ، جاء فيه أيضا نسبة الإفراط والغلو إليهم كما تقدم في شأن العزير عليه السلام .

المبحث الثاني

موقف النصارى

إذا كان اليهود غلب عليهم التفريط والتقصير والجفاء في حق أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين مع غلوهم في بعضهم كالعزير عليه السلام فإن النصارى قد ذهبوا إلى أقصى الطرف المعاكس فغلب عليهم الغلو والإفراط ولاسيما في نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام ، على أنهم فرطوا وقصروا أيضاً في حق الله بل وفي حق عيسى عليه السلام أيضاً، ويمكن إجمال مواقفهم في هذا الباب في الأمور التالية :

الأمر الأول : أنهم لم يؤمنوا بجميع الرسل والأنبياء ، بل فرقوا بينهم فآمنوابعض وكفروا ببعض وغلوا في بعض ، وهم معنيون أيضاً بقوله عز وجل : ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾. (النساء : ١٥٠-١٥١) وقدمنا إيراد هذه الآية في الكلام على موقف اليهود ، وذكرنا ماقاله الإمام ابن جرير في تفسيرها ، وفيه أن النصارى ممن آمن ببعض الانبياء وكفر ببعض، حيث آمنوا بعيسى وموسى بزعمهم وكفروا بمحمد ﷺ.

الأمر الثاني : أنهم غلوا وأفرطوا في نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام ، ورفعوه فوق المكانة التي جعله الله فيها ، وأنزلوه فوق المنزلة التي أنزله الله إياها . فلم يؤمنوا به عبداً لله ورسولاً نبياً ، وإنما جعلوه هو الله أو

ابن اللـه أو ثالث ثلاثـة يشكلون مـنها الإله ، وعـبدوه من دون اللـه عزوجل وأضافـوا إليه مـن الأفعال والأعـمال مالا يصـح إضافتـه ونسبـته إلا إلى الـله عزوجل ، فكـانت عقيدتهم فيـه التي أجمعوا علـيها بعد (مجمع نـيقية).[1] وسموها بـ (الإمامة) على النحو التالي الإيمان :

١- بإله واحد ، أب ، ضـابط الكل ، خالق السمـاء والأرض صانع ما يرى وما لا يرى.

٢- وبرب واحد يسوع ، الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله إلـه حق من إله حق ، مولود غـير مخلوق ، مساو لـلأب في الجوهر الذي به كان كل شيء الـذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خـطايانا نزل من السمـاء وتجسد في روح القـدس ومن مريم العذراء ، وصـلب حياً علـى عهد بيلاطس وتـألم وقبر ، وقام من الأموات في الـيوم الثالث على ما فـي الكتب وصعد إلى السماء وجلس على يمـين الرب وسيأتي ليدين الأحياء والأموات ، ولا فناء لملكه . . .).[2]

لقـد ذكر القـرآن الكـريم غلوهـم في عيـسى علـيه الـسلام ، وقولـهم بألوهيته وبـنوته لله عزوجل ، وكفرهم بـذلك ، فقال جل وعلا : **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هـو المسيح ابن مريم﴾**. (المائدة : ٧٢) **﴿لقد كفر الذين قالوا إن اللـه ثالث ثلاثة وما من إله إلا إلـه واحد وإن لم ينتهوا عمـا يقولون**

١- سمى بذلك نسبة إلى مدينة نيقية من أعمال اصطنبول التي اجتمع بها عدد من علماء النصارى، وكان من أهـم قراراته القول بـإلهية المسيح عليـه السلام انظر : الـنصرانيـة لأبي زهرة : ١٢٤ وانظر: ابن القيم ، هداية الحيارى :٣٢٣.

٢- انظر : الاسفار المقدسة :١١١، الملل والنحل :٢/٢٨ للشهرستاني .

ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾. (المائدة : ٧٣).

وقال : ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾. (التوبة : ٣٠).

وورد في بعض الأناجيل بعض النصوص التي اعتمد عليها النصارى في تأليه المسيح ونبوته، ومن ذلك ماجاء في إنجيل (يوحنا) كقوله : (في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله هذا كان في البدء عند الله، كل به كون وبغيره لم يكون شيء مما كون).[1]

فجعل المبسيح هو الكلمة ،وجعل الكلمة هي الله ، فالمسيح هو الله ، تعالى الله عن قولهم.

وفيه أيضا أن المسيح عليه السلام أبرأ أعمى فرده بصيراً ، وأن اليهود لما سألوه من رد إليك بصرك أخبرهم بذلك ووعظهم فطردوه، وسمع يسوع أنهم طردوه خارجاً فلقيه وقال له أتؤمن أنت بابن الله ، فأجاب وقال : ومن هو يا سيدي لأومن به ، فقال له يسوّع قد رأيته وهو الذي يكلمك فقال له : قد آمنت يارب وسجد له).[2]

على أن في هذا الإنجيل وغيره من الأناجيل من التناقضات في هذا الباب الكثير ، بل فيه ما يدل على بشريه المسيح وعبوديته وأنه نبي وليس بإله وليس من غرضنا هنا ذكرذلك ، وإنما القصد الإشارة إلى قولهم بألوهية

١- إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول فقرة ١- ٤.

٢- إنجيل يوحنا، الإصحاح التاسع فقرة ٣٥ - ٣٧ .

المسيح وبنوته لله عزوجل.[1]

الأمر الثالث : خذلانهم لنبيهم وعدم نصرته ، إن من الواجب على اتباع الرسل وخاصة أصحابهم وحوارييهم ، أن ينصرونهم ويعززوهم ويفدوهم بأنفسهم وأموالهم كما تقدم ذكر أخذ الله ميثاق بني أسرائيل على نصر الرسل ومؤازرتهم. ولكن قوم عيسى عليه السلام ، وتلاميذه خذلوه ولم ينصروه عندما أراد أعداؤه اليهود أخذه وقتله ، بل أسلمه بعضهم ودل عدوه عليه لولا أن الله رفعه وألقي شبهه على بعض تلاميذه.

وقد أثبت النصارى أن تلاميذ المسيح وأصحابه أسلموه لليهود وخلوا بينهم وبينه،وقبض بعضهم ثمناً لذلك، وهذا غاية الخذلان ذكر ذلك في إنجيل متى .[2]

١-٢- متى، الإصحاح السادس والعشرون فقرة : ١٤-٥٧.

المبحث الثالث

موقف المسلمين من أنبياء الله ورسله

ينبع موقف المسلمين في هذا الباب من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ منهما تستقي هذه الأمة مواقفها واعتقادها وسائر أمور دينها وعنهما تصدر، لذلك جاء موقفهما من أنبياء الله ورسله موقفاً معتدلاً وسطاً ، لا غلو فيه ولا إفراط ولا تفريط أو تقصير فيها، ولم تضل فيه كما ضلت أمم قبلها؛ لأنها لم تقل فيه بمجرد الرأى والهوى، ولم تبتدع فيه مالم يأذن به الله ولا رسوله ﷺ.

الأمر الأول : أن هذه الأمة آمنت بجميع الأنبياء والمرسلين ولم تفرق بين أحد منهم فتؤمن ببعض وتكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى ذلك أن الله عزوجل أمرها في كتابه الكريم بقوله : ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾. (البقرة :١٣٦).

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية :(أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وبما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً ، ونص على أعيان من الرسل ، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم ، بل يؤمنوا بهم كلهم . . .).[1]

وقال قتادة : (أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا ويصدقوا بأنبيائه ورسله كلهم

١- تفسير القرآن الكريم :١/ ٢٧١

ولا يفرقوا بين أحد منهم).[1]

وعد الرسول ﷺ الإيمان بالرسل أحد أركـان الإيمان الستة التي لا يكون المرء مؤمنا إلا إذا استكملها فقـال ﷺ في حديث جبريل المشهور : «الإيمان أن تؤمن بـالله، وملائكـته، وكتبه ورسـله، واليوم الآخـر، وتؤمن بالقـدر خيره وشره».[2]

فرسم القرآن الـكريم لهذه الأمة طريقة الاسـتقامة فاستجابـت لأمر الله ورسوله وآمنت برسل الله جميعاً، وشهد الله لها بهذا الإيمان في محكم كتابه فقال : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمـنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسلـه لا نفرق بين أحد من رسله وقالـوا سمعنا وأطعنا غـفرانك ربنا وإليك المصير﴾. (البقرة : ٢٨٥).

وبلغ من عمق إيمانها برسل الله وتصديقها لهم ، أنها تشهـد لهم على أممهم بالـبلاغ ،كما تقدم في حديـث أبي سعيد الخدري رضي اللـه عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : «يدعى نوح يوم الـقيامة ، فـيقول : لـبيك وسعـديك يارب ، فيـقول : هل بلـغت ؟ فيقول : نـعم ، فيقال لأمـته ، هل بلـغكم ؟ فيقولون : ما آتانا من نذير ، فيقول : مـن يشهد لك ؟ فيقول محمد وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليهم شهيداً ، فذلك قوله جل ذكره، ﴿وكذلك جعـلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهـداء على الناس ويكـون الرسول عليكم شهيداً﴾.(البقرة :١٤٣).[3]

١- انظر : ابن جرير في تفسير :٣/ ١١١.

٢- مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام : ١/ ٣٦-٣٧.

٣- اخرجه البخاري : كتاب التفسير، باب (وكذلك جعلناكم أمة..) ٨/ ١٧١رقم الحديث : ٤٤٨٧.

الأمر الثاني : أنها لم تنتقص أحداً منهم ، كما فعل غيرها من الأمم ، بل وقرتـهم وعزرتهم ونـصرتهم ، ونفت عنهم كل ما يقدح في أشخاصهم أونبوتـهم ورسالتهم ، وأثبتت عصمتـهم من الكفر ، وارتكاب الكبائر قبل الرسالة ، وبعدها ، وفي الصغائر خلاف، والجمهور على عصمتهم من تعمدها[1]. لأنهم صفوة الله من خلقه ، كما أخبر الله في غيرما آية من كتابه فقال : ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾. (آل عمران :٣٣) وقال عن موسى عليه السلام :﴿وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾. (طه :٣٩) وقال عن عدد من رسله : ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾. (ص :٤٧) وقال عن جميع رسله : ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾. (الحج : ٧٥).

فهذه الأمة تؤمن وتعتقد أن رسل الله وأنبيائه أفضل الخلق وأطهرهم وأزكاهم ، وأنهم منزهون عن الدنايا مبرؤون من كل سوء صادقون في أقوالهم، قدوة وأسوة في أفعالهم وأعمالهم ، لا يأتون منكراً ولا يقولون زوراً، ولايستحقون ذماً ولا يستوجبون عقاباً ، أمرنا الله بالاقتداء بهم واتباع هديهم فقال : ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بهاقوما ليسوا بها بكافرين أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ..﴾ . (الأنعام : ٨٩-٩٠).

وترى محبتهم واجبة ، ونصرتهم لازمة ؛ لذلك كان نبيها ورسولها محمد ﷺ ، أحب إليها من النفس والمال ، والولد والوالد ، كما جاء في

١- انظر لوامع الأنوار للسفاريني :٢/٣٠٣-٣٠٥

الحديث الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين».[1]

ولما أخذ رسول الله بيد عمر بن الخطاب وقال له عمر يارسول الله : «لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال النبي ﷺ لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر : فانه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ الآن ياعمر»[2].

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفدون النبي ﷺ بأموالهم وأنفسهم، فكان منهم من يقيه بجسده وقع السهام والنبال كما صنع أبو دجانة[3] رضي الله عنه في غزوة أحد.[4] ولم يخذلوه قط أو يتخلفوا عن نصره والقتال بين يديه ، حتى قال قائلهم يوم بدر وهو المقداد بن عمرو رضي الله عنه[5] : «يا رسول الله امضِ لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ (المائدة : ٢٤) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق؛ لوسرت بنا إلى برك الغماد[6] لجالدنا معك من دونه

١- البخاري : كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ : ١/٥٨.

٢- البخاري : الإيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي : ١١/٥٢٣، رقم : ٦٦٣٢.

٣- أبودجانة هو : سماك بن خرشه، متفق على شهوده بدراً، وكان ممن ذب عن النبي ﷺ يوم أحد استشهد با امة انظر الإصابة :٤/٥٨

٤-انظر سيرة ابن : ٢/٨٢ .

٥- هو المقداد بن ر الكندي ، شهد بدرا والمشاهد بعدها ، وكان فارساً يوم بدر مات سنة ٣٣هـ في خلافة عثمان انظر ابن حجر الإصابة : ٣/ ٤٥٤.

٦- هو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل : بلد باليمن، وقيل : موضع في أقصى أرض هجر ، ووقيل أقصى حجر باليمن . الحموي معجم البلدان : ١/٣٩٩-٤٠٠.

حتى نبلغه. . .﴾[1]

يرى الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه هذا الموقف العظيم من المقداد رضي الله عنه مشيداً به متمنياً أن يكون هو صاحبه فيقول : (شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً؛ لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به[2] أتي النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره ، يعني قوله).[3]

وقال سعد بن معاذ[4] رضي الله عنه في هذا المقام : (. . . فامضي يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، ومانكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله بقول سعد ونَشَّطَه ذلك. . .).[5]

فتأمل موقف هذه الأمة من نبيها ،وانظر أي بون بينه وبين موقف قوم موسى عليه السلام في قولهم : ﴿فأذهب أنت وربك فقاتلا إناهاهنا قاعدون﴾. (المائدة : ٥٤) أو مرقف النصارى الذي أسلموا نبيهم لأعدائهم

١- ابن هشام السيرة : ١/ ٦١٥

٢- عدل به : أي وزن به والمراد المبالغة في عظمة ذلك المشهد انظر : فتح الباري : ١/ ٢٨٧

٣- البخاري : كتاب المغازي ، باب قوله : ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾: ٧/ ٢٨٧

٤- هو سعد بن معاذ بن النعمان سيد الأوس ، شهد بدراً ، ورمى بسهم يوم الخندق فعاش بعد ذلك شهراً حتى حكم في بني قريظة ثم انتقض جرحه فمات وذلك سنة خمس انظر : ابن حجر الإصابة : ٢/ ٣٧

٥- ابن هشام ، سيره : ١/ ٦١٥

ليقتلوه ويصلبوه بزعمهم ، وتآمر بعض تلاميذه وحوارييه عليه ، كما تقدم بيان ذلك في فعل القوم من أنبيائهم.

الأمر الثالث : أنهم لم يغلوا فيهم أو يفرطوا في مدحهم بالباطل : وإنما قدروهم حق قدرهم ، وعزروهم ونصروهم ، وأحبوهم ، وعظموهم وأجلوهم غاية التعظيم والإجلال ، ولم يفرطوا في مدحهم ولم يبالغوا في إطرائهم والثناء عليهم ولم يجاوزوا الحد في ذلك ، ولم ينزلوهم فوق المنزلة التي أنزلهم الله إياها ، ولم يرفعوهم فوق المقام الذي لهم ، فلم يجاوزوا بهم منزلة الرسالة والنبوة ومقام العبودية لله ، وهما المقام والمنزلة التي أنزلهم الله إياها وأقامهم فيها وخاطبهم وذكرهم بها في كتابه العزيز[1] فقال عن نوح : ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾. (الاسراء :٣). وقال عن داود عليه السلام : ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيدب إنه أواب﴾. (ص :١٧) وقال عن سليمان : ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾. (ص :٣٠).

وقال عن سليمان عليه السلام : ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾. (ص :٣٠) وقال عن أيوب عليه السلام : ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾.(ص :٤١) وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام : ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾. (ص : ٤٥) ثم قال عن عيسى عليه السلام : ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾. (النساء : ١٧٢).

١- وسطية أهل السنة بين الفرق :٢٨٢-٢٨٣

وقال عن خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرم إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله . . .﴾ . (الإسراء :١) وقال : ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ . (النجم :١٠).

فمقام الرسالة والعبودية هو المقام الذي شرف به عباده المرسلين ومَنّ عليهم به ، وهم صلوات الله وسلامه عليهم يأبون أن يرفعوا فوق ذلك ، وينهون أممهم به ويحذرونهم من مجاوزة هذا المقام ، ويقول في هذا المصطفى ﷺ : «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبدالله ورسوله»[1].

فالأنبياء والمرسلون بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ويتزوجون النساء ، ولكثير منهم بنون وحفدة وليسوا بآلهة ولا أبناء الله ، كما ضل النصاري في عيسى عليه السلام، يقول الحق تبارك وتعالي مقررا هذه الحقيقة : ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي أنما إلهكم إله واحد. .﴾ (الكهف :١١٠) ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ . (الرعد :٣٨) ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ . (الفرقان :٢٠).

فهذه منزلة الرسل والأنبياء كما جاءت في القرآن لا إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا تقصير فأمنت بها أمة الإسلام، فرسل الله عبيد لا يعبدون، ورسل لا يكذبون، بل يطاعون ويتبعون .

١- البخاري : أحاديث الأنبياء باب قول الله ﴿واذكر في الكتاب مريم . .﴾ : ٦/٤٧٨ .



الفصل السادس

وسطية القرآن في اليوم الآخر

المبحث الأول

أنواع المكذبين بالبعث

كذب كثير من الناس قديماً وحديثاً بالبعث والنشو، وبعض الذين قالوا بإثباته صوروه على غير الصورة التي أخبرت بها الرسل وقد بين الله سبحانه وتعالى قول المكذبين وذمهم وكفرهم وتهددهم وتوعدهم، قال تعالى : ﴿وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. (الرعد : ٥) ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾. (الأنعام : ٢٩) وقال تعالى : ﴿وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً ، قل كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة﴾. (الإسراء :٤٩-٥١).

وقد تعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لبيان أنواع المكذبين بالبعث والنشور

من اليـهود والنصارى والـصابئة والفـلاسفة ومنـافقي هذه الأمة فـقال : (وإنما المخالف في ذلك أحد رجلين إماكافر، وإما منافق :

أما الكـافر فإن اليهـود والنصارى ينكـرون الأكل والشرب والنـكاح في الجنة ، يزعمون أن أهـل الجنة إنما يتمتعون بالأصوات المطـربة والأروح الطيبة مع نعيم الأروح ، وهم يقرون مع ذلك بحشر الأجساد مع الأرواح ونعيمهما وعذابـهما ، وأما طـوائف من الـكفار وغيـرهم من الـصابئـة والفلاسفـة ومن وافقهم فيقرون بحشر الأرواح فقط ، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط .

وطوائـف من الكفـار والمشركين وغـيرهم ينـكرون المعاد بـالكليـة ، فلا يقرون لا بمـعاد الأرواح ، ولا الأجساد ، وقد بـين الله تعـالى في كتابـه على لسان رسوله أمر مـعاد الأرواح والأجساد ورد على الكافرين والمـنكرين لشيء من ذلك ، بياناً تاماً غاية التمام والكمال.

وأما المـنافـقون من هـذه الأمة الـذين لا يقـرون بألـفاظ القـرآن والسـنة المشهـورة فإنهم يـحرفون الكلام عـن مواضعه ، ويقـولون هذه أمثـال ضربت لنفهم المعاد الروحاني ، وهؤلاء مثل القرامـطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة ، ومثل المتفلسفة الـصابئة المتسبين إلى الإسلامُ وطائفة ممن ضاهوهم : من كـاتب أو متطبب ، أو متكلم ، أو مـتصوف ، كأصحاب رسائل (إخوان الـصفا) وغيرهم ، أو مـنافق وهؤلاء كلهـم كفار يجب قتـلهم باتفاق أهل الإيمان).[1]

وذكر رحمه الله تعـالى في موضع في الآخرة بأمثال مضروبـة لتفهيم ما

١- مجموع فتاوى ابن تيمية :٤/٣١٣

يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم ، لا بإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها، ويتألم بها)[1].

وحقيقة قول هؤلاء أن الله لم يكن صادقاً في إخباره عن حقائق مافي المعاد ، وكذلك رسوله ﷺ ولذلك سمى شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الصنف من المتفلسفة المخالف لما عليه المسلمون في أمر المعاد (بأهل التخييل) وقال فيهم : (فأهل التخييل هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم ، ومن متكلم ومتصوف ، ومتفقه ، فإنهم يقولون إن ما ذكره الرسول من أمر الإيمان بالله والآخرة إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور ، لا أنه بين به الحق ، ولا هدى الخلق ، ولا أوضح الحقائق).[2]

وقد صنف الدكتور عمر الأشقر المكذبين بالبعث والنشور إلى ثلاثة أصناف :[3]

الأول : الملاحدة الذين أنكروا وجود الخالق ، ومن هؤلاء كثير من الفلاسفة الدهرية الطبائعية ، ومنهم الشيوعيون في عصرنا ، وهؤلاء ينكرون صدور الخلق عن خالق ، فهم منكرون للنشأة الأولى والثانية ، ومنكرون لوجود الخالق أصلاً . ولا يحسن مناقشة هؤلاء في أمر المعاد ، بل يناقشون في وجود الخالق ووحدانيته أولاً ثم يأتي إثبات المعاد بعد ذلك، لأن الإيمان بالمعاد فرع عن الإيمان بالله .

الثاني : الذين يعترفون بوجود الخالق ، ولكنهم يكذبون بالبعث

١- المرجع السابق :١٣/ ٢٣٨

٢- مجموع الفتاوى :٥/ ٣١

٣-اليوم الآخر القيامة الكبرى لعمر الأشقر :٧٢

والنشور ، ومن هؤلاء العرب الذين قال الله فيهم : ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**﴾ . (لقمان : ٢٥) وهم القائلون فيما حكاه الله عنهم : ﴿**أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾ . (النمل : ٦٧-٦٨) . وهؤلاء يدعون أنهم يؤمنون بالله ، ولكنهم يدعون أن قدرة الله عاجزة عن إحيائهم بعد إماتتهم ، وهؤلاء هم الذين ضرب الله لهم الأمثال ، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور ، وأنه لا يعجزه شيء ومن هؤلاء طائفة من اليهود يسمون بالصادقيين ، يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بتوراة موسى ، وهم يكذبون بالبعث والنشور والجنة والنار .

الثالث : الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاءت بها الشرائع .[1]

---

١ - نفس المصدر السابق ص٧٢ .

المبحث الثاني

نظرة في نصوص اليوم الآخر عند أهل الكتاب

لا شك أن الكتب السماوية التي أنزلها الحق تبارك وتعالى كانت تزخر نصوصها بذكر اليوم الآخر ، والتخويف منه ، والتبشير بما أعده الله للمؤمنين به في جنات النعيم ، والتحذير من النار وأهوال القيامة ، إلا أن هذه الكتب طرأ عليها تحريف كثير ، وذهب كثير من نصوصها التي تتعرض لليوم الآخر[1] .

ففي التوراة التي تنسب إلى موسى لا نجد إلا نصاً واحداً يصرح بيوم القيامة ، وهو في التوراة السامرية صريح للغاية ، ولكنه في التوراة العبرية يحتمل معنيين .

ففي التوراة السامرية (أليس هو مجموعاً عندي مختوماً في خزائني إلى يوم الانتقام والمكافأة وقت تزل أقدامهم) .[2]

وفي التوراة العبرانية هكذا : (أليس ذلك مكنوزاً عندي مختوماً عليه في خزائني ، لي النقمة والجزاء في وقت تزل أقدامهم) .[3]

فنص السامرية يدل على أن الفصل إنما يكون في يوم القيامة الذي سماه يوم الانتقام والمكافأة ، أما نص العبرانية فإنه يجيز أن يكون الانتقام في الدنيا ،

١- المرجع السابق : ٩٢ .

٢- سفر التثنية الإشتراع، الإصحاح (٣٢) ٣٤- ٣٥ من التوراة السامرية .

٣- التوراة العبرانية نقلاً عن اليوم الآخر القيامة الكبرى : ٩٢ .

ويجيز أن يكون في الآخرة ، ولذلك فإن الصادقين من اليهود الذين لا يؤمنون إلا بتوراة موسى العبرية لا يؤمنون بالبعث والنشور ، لعدم وجود دلالة تدل على البعث والنشور . أما أسفارالأنبياء الأخرى في التوراة ففيها بعض النصوص التي تصرح بالبعث والنشور ، وكذلك الأناجيل.

١- ففي سفر دانيال : (كثيرون من الراقدين تحت التراب يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية ، وهؤلاء إلى العار ، والازدراء الأبدي).[١]

٢- وفي سفر المزامير يذكر الحشر إلي النار فيقول : (مثل الغنم إلى النار يساقون ، الموت يرعاهم ، ويسودهم المستقيمون غداة ، وصورتهم تبلى، والهاوية مسكن لهم)[٢].

٣- وفي إنجيل لوقا إشارة إلى عذاب القبر، فقد جاء فيه : (ومات الغني ودفن ، فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب).[٣] فالمقبور من أهل الفجور يكون في العذاب ويرى مقعده من النار ، والهاوية هي النار .

٤- وفي إنجيل متى (فإن أعثرتك يدك أورجلك فاقطعها وألقها عنك خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان).[٤]

٥- ومن أكثر الكتب التي تحدثت عن الجنة والنار إنجيل برنابا ، فقد تحدث عن أهل الجنة ، وأنهم يأكلون ويشربون ، ولكنهم لا يتبولون ،

١- سفر دانيال الإصحاح :١٢

٢- سفر المزامير الخامس والخمسين الفقرة :٥

٣- إنجيل لوقا الإصحاح السادس عشر الفقرة :٢٢.

٤- إنجيل متى الإصحاح الثامن عشر الفقرة :٨

ولايتـغوطـون، لأن طعـامهم وشـرابهـم ليـس فيه خـبث ولا فـساد ، ولـكن النصـارى يكذبون بهذا الإنجيل الذي ظهر أخيـراً في عصرنا هذا . الـنصارى يعتقدون أن الذي ينـعم أو يعذب في القيامة هوالروح فحـسب، وقال بقولهم بعض الذين ينتسبون إلى الإسلام من الفلاسفة والفرق الباطنية الضالة.[1]

١- اليوم الآخر القيامة الكبرى : ٩٤.

المبحث الثالث

أدلة البعث والنشور

الإيمان بالمعاد دل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والقرآن كله من فاتحته إلى خاتمته مملوء بذكر أحوال اليوم الآخر وتفاصيل ما فيه ، وتقرير ذلك بالأخبار الصادقه والأمثال المضروبة للاعتبار والإرشاد ، وكما ذكر القرآن الأدلة عليه، ورد على منكريه ، وبين كذبهم وافتراءهم.

والفطرة السليمة تدل عليه وتهدي إليه ، ولاصحة لما يزعمه الضالون من أن العقول تنفي وقوع البعث والنشور ، فإن العقول لاتمنع وقوعه ، والأنبياء لا يأتون بما تحيل العقول وقوعه ، وإن جاؤوا بما يحير العقول[1] ومن وسطية القرآن، وحكمته واستقامته على الصراط المستقيم جاءت الأدله التي تكلمت على البعض بأساليب متنوعة ومتعددة تخاطب الفطرة ، والعقل السليم، وتؤثر في أعماق القلوب فإذا تأملت وتفكرت في كتاب الله اتضح لك أدلة كثيرة منها :

أولاً : إخبار العليم الخبير بوقوع القيامة :

ومن أعظم الأدلة الدالة على و قوع المعاد إخبار الحق تبارك وتعالي بذلك، فمن آمن بالله وصدق برسوله الذي أرسل، وكتابه الذي أنزل فلا مناص له من الإيمان بما أخبرنا به من البعث والنشور والجزاء والحساب والجنة والنار وقد نوع الحق تبارك وتعالي أساليب الإخبار ليكون أوقع في النفوس

١- اليوم الآخر :٧٣

وآكد في القلوب :

١- ففي بعض المواضع يخبرنا بوقوع ذلك اليوم إخبارا مؤكدا (بان) أو (بإن و اللام) كقوله تعالي ﴿إن الساعة آتيه أكاد أخفيها﴾. (طه :١٥) وقوله : ﴿إن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل﴾ .(الحجر :٨٥) وقوله ﴿إن ما توعدون لآت﴾. (الانعام :١٣٤) وقوله : ﴿إنما توعدون لواقع﴾. (المرسلات :٧).

٢- وفي موضع آخر يقسم الله تعالي على وقوعه ومجيئه كقوله تعالى : ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلي يوم القيامة لاريب فيه﴾. (النساء : ٨٦).

ويقسم على تحقيق ذلك بما شاء من مخلوقاته كقوله : ﴿والذاريات ذرواً فالحاملات وقراً فالجاريات يسراً فالمقسمات أمراً إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾. (الذاريات :١-٦) وقوله : ﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور، إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع﴾. (الطور :١-٨).

٣- وفي بعض المواقع يأمر رسله بالإقسام على وقوع البعث وتحقيقه ، وذلك في معرض الرد على المكذبين به المنكرين له ، كقوله : ﴿وقال الذين كفروالا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾. (سبأ :٣) وقوله : ﴿ويستنبئونك أحق هو قل أي وربي إنه لحق﴾. (يونس :٥٣) وقوله : ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبئون بما عملتم﴾. (التغابن :٧).

٤- وفي مواضع أخرى يذم المكذبين بالمعاد كقوله : ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ . (الأنعام : ٤٥).

وقوله : ﴿ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ . (الشورى : ١٨) وقوله : ﴿بل إدارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾ . (النمل :٦٦).

٥- وأحياناً يمدح المؤمنين بالمعاد : ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ . (آل عمران :٧-٩).

٦- وأحياناً يخبر أنه وعد صادق ، وخبر لازم ، وأجل لا شك فيه : ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ . (هود :١٠٣) وقوله : ﴿إنما توعدون لصادق﴾ . (الذاريات :٥).

٧- وفي بعض الأحيان يخبر عن مجيئه واقترابه كقوله : ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ . (المعارج : ٦-٧) وقوله :﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ . (النحل : ١).

٨- وفي مواضع أخرى يمدح نفسه تبارك وتعالى بإعادة الخلق بعد موتهم، ويذم الآلهة التي يعبدها المشركون بعدم قدرتها على الخلق وإعادته كقوله : ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ . (الفرقان : ٣).

٩- وبين في مواضع أخرى أن هذا الخلق وذاك البعث و بعثكم ﴿إلا

كنفس واحدة﴾. (لقمان : ٢٨) وقال : **﴿أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾**. (القيامة :٣-٤).

ثانياً : ومن وسطية القرآن في إقناع الناس بالإيمان باليوم الآخر الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى :

استدل القرآن على الخلق الثاني بالخلق الأول ، فنحن نشاهد في كل يوم حياة جديدة تخلق أطفال يولدون ، وطيور تخرج من بيضها، وحيوانات تلدها أمهاتها ، وأسماك تملأ البحر والنهر، يرى الإنسان ذلك كله بأم عينيه، ثم ينكر أن يقع مثل ذلك مرة أخرى بعد أن يبيد الله هذه الحياة.

إن الذين يطلبون دليلاً على البعث بعد الموت يغفلون عن أن خلقهم على هذا النحو أعظم دليل ، فالقادر على خلقه ، قادر على إعادة خلقهم ، وقد أكثر القرآن من الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى ، وتذكير العباد المستبعدين لذلك بهذه الحقيقة : **﴿ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حياً أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾**. (مريم : ٦٦-٦٧).

ويذكرنا القرآن في موضع آخر بالخلق الأول للإنسان ، فأبونا آدم خلقه الله من تراب ، فالقادر على جعل التراب بشراً سوياً ، لا يعجزه أن يعيده بشراً سوياً مرة أخرى بعد موته ، ويذكرنا أيضاً بخلقنا نحن - ذرية آدم- فإنه خلقنا من سلالة من ماء مهين ، تحول هذا الماء فأصبح نطفة ، ثم صارت النطفة علقة ، ثم تحولت إلى مضغة . . إلى أن نفخ فيها الروح ، وجعلها إنساناً سوياً. فالقادر على هذا الخلق المشاهد المعلوم ، قادر على إحياء الخلق

وإحياء الموتى.[1]

قال تعالى : ﴿ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقنكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يُحْيِ الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾. (الحج : ٥-٧).

وقد أمر الله عباده بالسير في الأرض ، والنظر في كيفية بدء الخلق ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة : ﴿أولم يرو كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾. (العنكبوت : ١٩).

ثالثاً : ومن الأدلة التي ذكرت في القرآن في الاستدلال على البعث : القادر على خلق الأعظم قادر على خلق مادونه قبيح في نظر البشر أن يرمى بالعجز عن حمل الشيء الحقير من يستطيع حمل العظيم ، ومثله إذا غلب إنسان رجلاً شديد البأس قوياً لايقال له : إنك لا تستطيع أن تصرع هذا الهزيل الضعيف ، ومن استطاع أن يبني قصرا لا يعجزه بناء بيت صغير. ولله

١- أنظر : اليوم الآخر : ٧٧.

المثل الأعلى ، فإن جملة خلقه ما هو أعظم من خلق الناس ، فيكف يقال للذي خلق السموات والأرض أنت لا تستطيع أن تخلق ما دونها.[1]

قال تعالى : ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾. (يس :٨١) وقال تعالى : ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾. (غافر :٥٧).

قال ابن تيمية رحمه الله :(فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم ، والقدرة عليه أبلغ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك)[2].

وقال شارح الطحاوية : (أخبر تعالى أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما، يحي عظاما قد صارت رميما، فيردها إلى حالتها الأولى)[3].

رابعاً : قدرته تبارك وتعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال : الذين يكذبون بالبعث يرون هلاك العباد، ثم فناءهم في التراب ، فيظنون أن إعادتهم بعد ذلك مستحيلة : ﴿وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفى خلق جديد﴾. (السجدة :١٠).

والمراد بالضلال في الأرض تحلل أجسادهم، ثم اختلاطها بتراب الأرض، تقول ضل السمن في الطعام إذا ذاب وانماع[4] فيه . وقد بين الحق

١- المرجع السابق :٧٨.

٢- مجموع الفتاوى لابن تيمية : ٣/٢٩٩.

٣- اليوم الآخر : ٧٩.

٤- اليوم الآخر : ٧٩.

تبارك وتعالى في أكثر من موضع أن من تمام ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال ، ولذا فإنه يميت ويحي ويخلق ويفني ، ويخرج الحي من الميت ، والميت من الحي قال تعالى : ﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقديرالعزيز العليم﴾. (الأنعام :٩٥-٩٦).

ومن الحبة الجامدة الصماء يخرج نبتة غضة خضراء تزهر وتثمر ثم تعطي هذه النبتة الحية حبوبا جامدة ميتة ، ومن الطيور الحية يخرج البيض الميت ، ومن البيض الميت تخرج الطيور المتحركة المغردة التي تنطلق في أجواء الفضاء.

إن تقليب العباد ، موت فحياة ، ثم موت فحياة ، دليل عظيم على قدرة الله تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه : ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾. (البقرة :٢٨).

وقد ذكرت الأدلة التي ذكرتها في الاحتجاج على البعث من الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى، ومن كون القادر على خلق الأعظم قادرعلى خلق ما دونه، وتحويل الخلق من حال إلى حال في سورة يس في موضع واحد من كتاب الله وهذا يدل على وَسطية القرآن واستقامته على الصراط المستقيم واعتداله وقوة حجته في إقناع الناس بإقامة الحجج والبراهين.

قال تعالى : ﴿وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون أوليس الذي خلق السموات

والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾. (يس : ٧٨-٨٣).

ونزلت هذه الآيات في أبي بن خلف أتى رسول الله ﷺ بعظم ثم قال يا محمد من يحي هذا وهو رميم، قال : الله يحيه ثم يميته ثم يدخلك النار، فقتله رسول الله يوم أحد وقيل نزلت في العاص بن وائل .[1]

ولو كان صاحب المقولة المذكورة في أسباب النزول لبيباً عاقلاً لم يسأل هذا السؤال ، لأن وجوده وخلقه في هذه الحياة يجيب على السؤال ، وقد وضح النص هذا المعنى الذي أجمله في البداية فقال : **﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾.** (يس : ٧٩) فاحتج بالإبداء على الإعادة ، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى ، إذ كل عاقل يعلم ضرورياً أن من قدرعلى هذه قدر على هذه وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق ، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله : **﴿وهو بكل خلق عليم﴾.** (يس :٨٠) فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ، مواده وصورته ، فكذلك الثاني ، فإذا كان تام العلم ، كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحي العظام وهي رميم ؟ .[2]

٢- ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر ، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول : العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة ،

١- انظر : جامع البيان لتفسيرالطبري : ١٢/٣٠

٢- شرح العقيدة الطحاوية : ٤٦.

والحياة لابد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب معاً، فقال : ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون**﴾ . (يس : ٨٠) فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر ، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة ، فالذي يخرج الشيء من ضده ، تنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا يستعصي عليه ، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهي رميم.[1]

٣- ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم ، على الأيسر الأصغر فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهوقادر على مادونه بكثير قال تعالى : ﴿**أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم**﴾ . (يس : ٨٠).

فأخبر أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما ، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما ، وسعتهما ، وعجيب خلقهما ، أقدر عليه أن يحي عظاماً قد صارت رميماً ، فيردها إلى حالتها الأولى.[2]

٤- ثم أكد تبارك وتعالى ذلك وبينه ببيان آخر ، وهوأن فعله ليس بمنزلة غيره ، الذي يفعل بالآلات والكلفة ، والنصب والمشقة ، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لابد معه من إله ومعين بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته وقوله للمكون ﴿كن﴾ فإذا هو كائن كما شاء وأراده ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ . (يس : ٨٢) ثم ختم هذه

١- اليوم الآخر القيامة الكبرى : ٨٢

٢- شرح العقيدة الطحاوية : ٤٦٠

الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده ، فيفرق فيه بفعله وقوله : ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾. (يس :٨٣).

خامساً : ومن أدلة البعث التي جاءت في القرآن الكريم ما ذكر الله في كتابه من إحياء بعض الأموات في هذه الحياة :

ومن ذلك ما أخبر الله تعالى عن قوم موسى قال تعالى : ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾. (البقرة : ٥٥) فاخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، ثم بعثهم بعد موتهم ﴿فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾. (البقرة : ٥٥-٥٦) وقتيل بني إسرائيل الذي اختلفوا في قاتله فأمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل بجزء منها ، فأحياه الله وأخبر عمن قتله : ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾. (البقرة :٧٣).

وأخبر المولى عز وجل عن الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف خشية الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم قال تعالى : ﴿ألم ترإلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾. (البقرة : ٢٤٣) وأخبرنا المولى عزوجل عن قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فتعجب من إحياء الله لها بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه حتى يوقن أن الله على كل شيء قدير قال تعالى : ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثتَ قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم قال بل لبثتَ مائة عام فانظرإلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظرإلى العظام

كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾. (البقرة :٢٥٩)

وإبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يريه كيف يحي الموتى ، فكان هذا المشهد الذي حدثنا الحق تبارك وتعالى عنه : ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم أدعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾. (البقرة : ٢٦٠).

أمره الله أن يأخذ أربعة من الطيور فيذبحها، ثم يفرق أجزاءها على عدة جبال، ثم ناداها آمراً إياها بالاجتماع، فكان كل عضو يأتي ويقع في مكانه، فلما تكامل اجتماعها نفخ الله فيها الروح وانطلقت محلقة في الفضاء.

وعيسى عليه السلام كان يصنع من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وكان يحي الموتى بإذن الله ، فقد قال لقومه : ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله﴾. (آل عمران :٤٩)

وأصحاب الكهف ضرب الله على آذانهم في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ثم قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة : ﴿ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾. (الكهف : ١٢) ﴿وكذلك بعثناهم ليتسألوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾. (الكهف : ١٩) ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا

تسعاً﴾. (الكهف : ٢٥).

وكانت آية موسى الكبرى عصا جامدة يلقيها على الأرض فتتحول بقدرة الله إلى ثعبان مبين : ﴿فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين﴾. (الشعراء : ٣٢) ، وعندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ألقى موسى عصاه فإذا هي تبتلع تلك العصى والحبال على كثرتها ﴿فالقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾. (الشعراء : ٤٥).

سادساً : ومن أدلة القرآن على إثبات البعث ، ضربه المثل بإحياء الأرض بالنبات ، وقد ضرب الله المثل لإعادة الحياة إلى الجثث الهامدة والعظام البالية بإحيائه الأرض بعد موتها بالنبات: ﴿فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾. (الروم : ٥٠) وقال : ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾. (فاطر : ٩).

سابعاً : والدليل السابع الذي ذكر في القرآن الاستدلال بحكمة الله حيث أن حكمته تقتضي بعث العباد للجزاء والحساب. فإن الله خلق الخلق لعبادته وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الطريق الذي يعبدونه ويطيعونه ويتبعون أمره ويجتنبون نهيه ، فمن العباد من استقام على طاعة الله ، وبذل نفسه وماله في سبيل ذلك، ومنهم من رفض الاستقامة على طاعة الله ، وطغى وبغى، أفليس بعد ذلك أن يموت الصالح والطالح ولا بد أن يجزي الله المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، قال تعالى : ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾. (ن : ٣٥-٣٨).

إن الملاحدة الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يظنون الكون خلق عبثاً وباطلاً لا لحكمة، وأنه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح والكافر المفسد ، ولابين التقي والفاجر، قال تعالى : **﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾** . (ص : ٢٧-٢٨).

فهذه أساليب القرآن في إقناع الناس بالبعث اعتمدت على خطاب العقل والانسجام مع الفطرة والتجاوب مع القلوب، ونجد في القرآن الكريم وصف لأهوال يوم القيامة ويصور القرآن الكريم بعض معالم أهوال يوم القيامة ، من قبْض الأرض وطي السماء ، ودك الأرض ونسف الجبال وتفجير البحار وتسجيرها ، وموران السماء وانفطارها، وتكوير الشمس وخسوف القمر وتناثر النجوم ، ويصور لنا القرآن الكريم حال الكفار وذلتهم وهوانهم وحسرتهم ويأسهم وإحباط أعمالهم ، وتخاصم العابدين والمعبودين وتخاصم الأتباع وقادة الضلالة ، وتخاصم الضعفاء والسادة وتخاصم الكافر وقرينه الشيطان ، ومخاصمة الكافر أعضاءَه وتخاصم الروح والجسد، وتكلم القرآن عن الشفاعة وبين شروطها والمقبول منها ، والمرفوض ، والمراد بالحساب والجزاء ، وعن مشهد الحساب ، وهل يسأل الكفار؟ ولماذا يسألون؟ وحدثنا القرآن الكريم عن اقتصاص المظالم بين الخلق ، وكيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة، وبيَّنَ المولى عزوجل في القرآن عظم شأن الدماء، وبين أن هناك يوم القيامة توضع الموازين التي توزن بها الأعمال، وأخبرنا النبي ﷺ عن الحوض ومن الذين يردون عن الحوض والذين يذادون عنه.

وصور القرآن الكريم حشر الكفار إلى النار ، ومرور المؤمنين على الصراط، وخلاص المؤمنين من المنافقين، وهذا الذي ذكرنا كله من وسطية القرآن في باب الإيمان باليوم الأخر ، وحكمته البالغة في إخباره بما ينفع الناس وترغيبهم وترهيبهم منه ، حتى يستعدوا لذلك اليوم بالأعمال الصالحة ويبتعدوا عن الأعمال المحرمة.

المبحث الرابع

طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم

تكلم القرآن الكريم عن طعام أهل النار وبين أنه الضريع والزقوم ؛ وأن شرابهم الحميم والغسلين ، والغساق قال تعالى : ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ . (الغاشية : ٦-٧) والضريع شوك بأرض الحجاز يقال له الشبرق.

وعن ابن عباس : الشبرق (نبت ذو شوك لا طيءٌ بالأرض، فإذا هاج سمي ضريعاً).[1]

وقال قتادة : (من أضرع الطعام وأبشعه).[2]

وهذا الطعام أكلهم له نوع من أنواع العذاب ، لا يتلذذون به ولا تنتفع به أجسادهم .

أما الزقوم فقال تعالى فيه : ﴿إن شجرت الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾، وقد وصف الله شجرة الزقوم في آيه أخرى فقال : ﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين ، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ . (الصافات :٦٢)

وقال في موضع أخر : ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من

١-٢- التخويف من النار لابن رجب : ١١٥.

شجر من زقوم ، فمالؤن منها البطون ، فشربون عليه من الحميم فشربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين﴾. (الواقعة :٥١).

ويؤخذ من هذه الآيات أن هذه الشجرة شجرة خبيثة ، جذورها تضرب في قعر النار ، وفروعها تمتد في أرجائها ، وثمر هذه الشجرة قبيح المنظر لذلك شبهت برؤوس الشياطين ، وقد استقر في النفوس قبح رؤوسهم وإن كانوا لا يرونهم ، ومع خبث هذه الشجرة وخبث طلعها ، إلا أن أهل النار يلقى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفراً من الأكل منها إلى درجة ملء البطون فإذا امتلأت بطونهم أخذت تغلي في أجوافهم كما يغلي دردي الزيت، فيجدون لذلك آلاماً مبرحة ، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ اندفعوا إلى الحميم وهو الماء الحار الذي تناهى حره ، فشربوا منه كشرب الإبل التي تشرب وتشرب ولا تروى لمرض أصابها، وعند ذلك يقطع الحميم أمعاءهم ﴿وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم﴾. (محمد : ١٥) هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم.[1]

وإذا أكل أهل النار هذا الطعام الخبيث من الضريع والزقوم غصوا به لقبحه وخبثه وفساده : ﴿إن لدينا أنكالاً وجحيماً ، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً﴾. (المزمل : ١٢).

ومن طعام أهل النار الغسلين، قال تعالى : ﴿فليس له اليوم هاهنا حميم، ولا طعام إلا من غسلين، لا يأكله إلا الخاطئون﴾. (الحاقة : ٣٥-٣٧) وقال تعالى : ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق، وآخر من شكله

١- اليوم الأخر الجنة والنار لعمر الأشقر : ٨٨.

أزواج﴾ . (ص : ٥٨).

والغسلين والغساق بمعنى واحد ، وهو ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد ، وقيل ما يسيل من فروج النساء الزواني ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم ، وقال القرطبي : (هو عصارة أهل النار).[1]

أما شرابهم فهو الحميم قال تعالى : ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ . (محمد :١٥) وقال : ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ . (الكهف : ٢٩) وقال : ﴿ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾ . (إبراهيم:١٦-١٧) وقال : ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾ . (ص : ٥٧) وقد ذكرت هذه الآيات أربعة أنواع من شراب أهل النار :

الأول : الحميم ، وهو الماء الحار الذي تناهى حره .

الثاني : الغساق ، وقد مضى الحديث عنه ، فإنه يذكر في مأكول أهل النار ومشروبهم.

الثالث : الصديد ، وهو ما يسيل من لحم الكافر وجلده.

الرابع : المهل وهو كعكر الزيت، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه.[2]

١- يقظه أولي الاعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار صديق حسن : ٨٦.

٢- اليوم الأخر الجنة والنار : ٩٠.

أكلهم النار :

ومن أصحاب الذنوب من يطعمه الله جمر جهنم جزاء وفاقاً ، قال تعالى : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ . (النساء : ١٠).

وقال : ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ . (البقرة : ١٧٤).

لباس أهل النار :

أما لباس أهل النار فقد أخبرنا تبارك وتعالى أنه يفصّل لأهل النار حلل من النار ، كما قال تعالى : ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾ . (الحج : ١٩) وكان إبراهيم التيمي إذ تلا هذه الآية يقول : (سبحان من خلق من النار ثياباً).[١]

وقال تعالى : ﴿وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾ . (إبراهيم : ٤٩) والقطران هو النحاس المذاب.

١- التخويف من النار لابن الجوزي : ١١٦.

المبحث الخامس

صور من عذاب أهل النار

أولاً : تفاوت عذاب أهل النار .

إن الآيات القرآنية قد بينت تفاوت أصحاب النار في العذاب كقوله تعالى : ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ . (النساء : ١٤٥) وقوله : ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾. (غافر : ٤٦) وقوله : ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ . (النحل : ٨٨).

وقد بين النبي ﷺ ذلك في قوله : «إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته». وفي رواية إلى «عنقه».[1] وفي صحيح البخاري : حدثنا رسول الله ﷺ عن أخف الناس عذاباً فقال : «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة تغلي منها دماغة».[2]

وعن تفاوت أصحاب النار في العذاب يقول القرطبي : (هذا الباب يدلك على أن كفر من كفر فقط ، ليس ككفر من طغى وكفر وتمرد وعصى ، ولا شك أن الكفار في عذاب جهنم متفاوتون ، كما قد علم من الكتاب والسنة ، ولأنا نعلم على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء

١- رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب شدة حر النار :٤/ ٢١٨٥.

٢- البخاري مع الفتح كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار : ١١/ ٤٢٤.

والمسلمين وفتك فيهم وأفسد في الأرض وكفر مساويا لعذاب من كفر فقط ، وأحسن للأنبياء والمسلمين، ألا ترى أبا طالب كيف أخرجه النبي ص إلى ضحضاح لنصرته إياه وذبه عنه وإحسانه إليه).[1]

وقال ابن رجب : (واعلم أن تفاوت أهل النار في العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التي أدخلوا بها النار) إلى أن قال : (وكذلك تفاوت عذاب عصاة الموحدين في النار بحسب أعمالهم ، فليس عقوبة أهل الكبائر كعقوبة أصحاب الصغائر ، وقد يخفف عن بعضهم بحسنات أخر له أو بما شاء الله من الأسباب ، ولهذا يموت بعضهم في النار).[2]

ثانياً : إنضاج الجلود :

إن نار الله يوم القيامة تحرق جلود أهل النار ، والجلد موضع الإحساس بألم الاحتراق ، ولذلك فإن الله يبدل لهم جلوداً أخرى غير تلك التي احترقت لتحترق من جديد قال تعالى : ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً﴾. (النساء : ٥٦).

ثالثاً : الصهر :

من ألوان العذاب التي ذكرت في القرآن صب الحميم فوق رؤوسهم ، والحميم هو ذلك الماء الذي انتهى حره ، فلشدة حره تذوب أمعاؤهم وماحوته بطونهم : ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤسهم

١- التذكرة للقرطبي : ٤٠٩

٢- التخويف من النار : ١٤٢-١٤٣

الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ . (الحج : ١٩) .

أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه ، حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر ، ثم يعود كما كان» . وقال : حسن غريب صحيح .[1]

رابعاً : اللفح :

ومن إهانة الله لأهل النار أنهم يحشرون في يوم القيامة على وجوههم عمياً وصماً وبكماً . قال تعالى : ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾ . (الإسراء : ٩٧) ويلقون في النار على وجوههم : ﴿ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعلمون ﴾ . (النمل : ٩٠) .

ثم إن النار تلفح وجوههم وتغشاها أبداً لا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها : ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوهم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون﴾ . (الأنبياء : ٢٩) ﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾ . (المؤمنون : ١٠٤) ﴿سرابيلهم من قطران وتغشى وجوهم النار﴾ . (إبراهيم : ٥٠) ﴿أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾ . (الزمر : ٢٤) .

وانظر إلى هذا المنظر الذي تقشعر لهوله الأبدان : ﴿يوم تقلب وجوههم

١- جامع الأصول لابن الاثير : ١٠/ ٥٤٠ والترمذي كتاب صفه جهنم باب ماجاء في شراب أهل النار، رقم : ٢٥٨ : ٥/ ٦٠٧

في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾. (الأحزاب : ٦٦).

خامساً : السحب :

ومن أنواع العذاب الأليم سحب الكفار في النار على وجوههم : **﴿إن المجرمين في ضلال وسعر ، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر﴾**. (القمر :٤٧-٤٨) ويزيد من آلامهم حال سحبهم في النار أنهم مقيدون بالقيود والأغلال والسلاسل : **﴿فسوف يعلمون ،إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ، في الحميم ثم في النار يسجرون﴾**. (غافر : ٧٠-٧٢).

سادساً : تسويد الوجوه :

يسود الله في الدار الآخرة وجوه أهل النار : **﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾**. (آل عمران : ١٠٦) وهو سواد شديد ،كأنما حلت ظلمة الليل في وجوههم : **﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**. (يونس :٢٧).

سابعاً : إحاطة النار بالكفار :

قال تعالى : **﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**. (البقرة : ٨١) ولا يكون المرء كذلك إلا إذا كان كافر مشركاً ، يقول صديق حسن خان[1]: (المراد بالسيئة هنا الجنس ،

١- أحد علماء الهند المجددين والسالكين سبيل السلف الصالح ، محمد صديق خان بن حسن=

ولابد أن يكون سببها محيطا به من جميع جوانبه ، فلاتبقى له حسنة ، وسدت عليه مسالك النجاة ، والخلود في النار هو للكفار والمشركين ، فيتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه الآية بالكفر والشرك وبهذا يبطل تشبث المعتزلة والخوارج ، لما ثبت في السنة متواتراً من خروج عصاة الموحدين من النار).[1]

ولما كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السوار بالمعصم ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولذا فإن النار تحيط بالكفار من كل جهة ،كما قال تعالى : ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾ . (الأعراف : ٤١) والمهاد مايكون من تحتهم ، والغواش جمع غاشية وهي التي تغشاهم من فوقهم ، والمراد أن النيران تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، قال تعالى : ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ . (العنكبوت : ٥٥) وقال في موضع آخر : ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾ . (الزمر : ١٦) وقد صرح بالإحاطة في موضع آخر : ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ . (التوبة : ٤٩) وقد فسر بعض السلف المهاد بالفراش ، والغواش باللحف.[2]

وتأتي الإحاطة من ناحية أخرى ، وذلك أن للنار سُوراً يحيط بالكفار ، فلا يستطيع الكفار مغادرتها أو الخروج منها ، كما قال تعالى : ﴿إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى

= ابن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي أبو الطيب ، ولد ونشأ في قنوج بالهند ، وتزوج بملكة بهوبال ، وأخذ عليه مداراته للانجليز وتولى بعض الأمور لهم توفي سنة ١٣٠٧ . انظر الاعلام: ٦/ ١٦٧

١- يقظه أولى الإعتبار : ٦٧

٢- تفسير ابن كثير :٣/ ١٦٨

الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾.(الكهف :٢٩) وسرادق النار سورها وحائطهاالذي يحيط بها.[1]

ثامناً : اطلاع النار على الأفئدة :

قال تعالى : ﴿كلا لينبذن في الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة﴾. (الهمزة :٤-٧) قال محمد بن كعب[2] القرظي:(تأكله النار إلى فؤاده ، فإذا بلغت فؤاده أنشيء خلقه ، وعن ثابت البناني[3] أنه قرأ هذه الأية ، ثم قال : (تحرقهم النار إلى الأفئدة وهم أحياء لقد بلغ منهم العذاب ، ثم يبكي).[4]

تاسعاً : قيود أهل النار وأغلالهم وسلاسلهم ومطارقهم :

أعد الله لأهل النار سلاسلاً وأغلالاً وقيوداً ومطارقاً : ﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسلاً وأغلالاً وسعيراً﴾.(الإنسان : ٤) ﴿إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً﴾. (المزمل : ١٢-١٣) والأغلال توضع في الأعناق : ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾. (سبأ :٣٣) ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل

١- اليوم الآخر الجنة والنار :١٠٢

٢- هو محمد بن كعب بن سليم القرظي المدني من حلفاء الأوس كان أبوه من سبي بني قريظة إمام علامة صادق توفي ١٠٨هـ سير أعلام النبلاء : ٦٥/٥ شذرات الذهب: ١٣٦/١ ، وتهذيب التهذيب: ٩/ ٤٢٠.

٣- هو الإمام الزاهد التابعي الفاضل، ثابت بن أسلم البناني أبو محمد أنس بن مالك وهو اثبت الناس في أنس وهو من الثقات الاثبات توفي سنة ١٢٧هـ وقيل ١٢٣هـ، انظر: تهذيب التهذيب :٢/٢

٤- التخويف من النار ، لابن رجب :١٤٦

يسحبون﴾. (غافر : ٧١). والأنكال : القيود سميت أنكالا لأنه يعذبهم ويُنكل بهم بها ﴿لدينا أنكالاً ...﴾ (المزمل : ١٢) والسلاسل نوع آخر من ألوان العذاب التي يقيد بها المجرمون كما يقيد المجرمون في الدنيا ، وانظر إلى هذه الصورة التي أخبرنا بها الكتاب الكريم : ﴿خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾. (الحاقة : ٣٠-٣٢) وأعد الله لأهل النار مقامع من حديد وهي المطارق التي تهوي على المجرمين وهم يحاولون الخروج من النار، فإذا بها تطوح بهم مرة أخرى إلى سواء الجحيم ﴿ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾. (الحج : ٢١-٢٢).

عاشراً : قرن معبوداتهم وشياطينهم في النار :

قال تعالى : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها وكل فيها خالدون﴾. (الأنبياء : ٩٨-٩٩) يقول ابن رجب : (لما عبد الكفار الآلهة من دون الله ، واعتقدوا أنها تشفع لهم عندالله ، وتقربهم إليه ، عوقبوا بأن جُعِلَتْ معهم في النار إهانة لهم وإذلالاً ، ونكاية لهم وإبلاغاً في حسرتهم وندامتهم ، فإن الإنسان إذا قرن في العذاب بمن كان سبب عذابه كان أشد في ألمه وحسرته).[1]

قال القرطبي : (وإنما يجمعان في جهنم ، لأنهما قد عبدا من دون الله، لا تكون النار عذاباً لهما ، لأنهما جماد ، وإن يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين وحسرتهم ، وهكذا قال بعض أهل العلم).[2] ولهذا

١- التخويف من النار لابن رجب :١٠٥ .

٢- التذكرة للقرطبي :٣٩٢

المعنى يقرن الكفار بشياطينهم ليكون أشد لعذابهم ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾. (الزخرف :٣٦-٣٩).

الحادى عشر : حسرتهم وندمهم ودعاؤهم :

عندما يرى الكفارالنار يندمون أشد الندم ، ولات ساعة مندم ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾. (يونس : ٥٤) وعندما يطلع الكافر على صحيفه أعماله ، فيرى كفره وشركه الذي يؤهله للخلود في النار ، فإنه يدعو بالثبور والهلاك ، ﴿وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ، فسوف يدعو ثبوراً ، ويصلى سعيراً﴾. (الانشقاق : ١٠-١٢).

ويتكرر دعاؤهم بالويل والهلاك عندما يلقون في النار ، ويصلون حرها ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾. (الفرقان : ١٣-١٤) وهناك يعلو صراخهم ويشتد عويلهم ، ويدعون ربهم آملين أن يخرجهم من النار ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾. (فاطر : ٣٧) وهم يعترفون في ذلك الوقت بضلالهم وكفرهم وقله عقولهم : ﴿وقالوا لو كنا نسمع أونعقل ماكنا في أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾. (الملك : ١٠) ولكن طلبهم يرفض بشدة ، ويجابون بما يستحق أن تجاب به الأنعام ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ، ربنا

أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، قال أخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ . (المؤمنون : ١٠٦-١٠٨).

لقد حق عليهم القول ، وصاروا إلى المصير الذي لا ينفع معه دعاء ولا يقبل فيه رجاء ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ، ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين ، فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ . (السجدة : ١٢-١٤).

ويتوجه أهل النار بعد ذلك النداء إلى خزنة النار ، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم كي يخفف الله عنهم شيئاً مما يعانونه : ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم أدعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ، قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ . (غافر : ٤٩-٥٠) وعند ذلك يسألون الشفاعة كي يهلكهم ربهم : ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ . (الزخرف : ٧).

لقد خسر هؤلاء الظالمون أنفسهم وأهليهم عندما استحبوا الكفر على الإيمان ، واستمع إلى عويلهم وهم يرددون حال العذاب ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ . (الأحزاب : ٦٦) ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك. . .﴾ (هود : ١٠٦).

قال الليث[1] رحمه لله : (الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه ، والشهيق أن يخرج ذلك النفس).[2]

وما ذكرت من صور العذاب في القرآن الكريم يدل على أن العذاب حسي ومعنوي وفيه من الوضوح والبيان ما يجعل الإنسان صاحب الفطرة السوية من أن يستجيب لأوامر الله ويجتنب نواهيه ، وهذه الصور الحية لا توجد في التوراة ولا في الإنجيل ولا في غيرها من الكتب المقدسة وهذا يدل على وسطية القرآن وحكمته في عرض اليوم الآخر بمشاهده الحية في الترهيب بدون إفراط أو تفريط أو زيادة أو نقصان . وبإذن الله سنتكلم في الصفحات القادمة عن جانب الترغيب والله الهادى إلى سواء السبيل.

١- الليث بن سعد هو شيخ الديار المصرية الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمي ويكنى أبا الحارث ولد سنة ٩٤هـ بقرقشند ،كان غنياً سخياً يزيد دخله عن عشرين ألف دينار سنويا ومع ذلك لم تجب الزكاة في ماله لأنه من شدة سخائه ما كان يبقى عنده نصاب الزكاة قال الشافعي فيه : الليث أفقه من مالك، إلا أنه ضيعه أصحابه. توفى عام ١٧٥هـ انظر ترجمته في تاريخ بغداد : ٣/١٣ ،تذكرة الحفاظ : ٣٠٧/١.

٢- يقظة أولي الاعتبار، لصديق حسن خان : ٧٢.

المبحث السادس

صفة الجنة

أولاً : الجنة لا مثل لها .

إن نعيم الجنة شيء أعده الله لعباده المتقين نابع من كرم الله وجوده وفضله، ووصف لنا المولى عز وجل شيئاً من نعيمها إلا أنه ما أخفاه الله عنا من نعيم شيء عظيم لا تدركه العقول ، ولا تصل إلى كنهه الأفكار. قال تعالى : **﴿فلاتعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾**. (السجدة :١٧).

وقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فاقرؤا إن شئتم **﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾**» [1].

وقد بين الله سبحانه وتعالى سبب هذا الجزاء بما وفقهم إليه من أعمال عظيمة من قيام ليل ، وإنفاق في سبيله قال تعالى : **﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾**. (السجدة : ١٧).

١- البخاري مع الفتح، كتاب بدء الخلق، باب صفة الجنة : ٦/ ٣٦٦ رقم :٣٢٤٤.

ثانياً : أبواب الجنة :

وصف الله سبحانه وتعالى في كتابه الجنة بأن لها أبواباً يدخل منها المؤمنون كما تدخل منها الملائكة قال تعالى : ﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾. (ص : ٥٠) ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾.(الرعد :٢٣).

وأخبرالحق تبارك وتعالى أن هذه الأبواب تفتح عندما يصل المؤمنون إليها، وتستقبلهم الملائكة محيية بسلامة الوصول : ﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾. (الزمر : ٧٣).

وعدد أبواب الجنة ثمانية ، وأحد هذه الأبواب يسمى الريان وهو خاص بالصائمين كما في حديث البخاري عن النبي ﷺ قال : «في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون».[1] وقد بين العلماء أن هناك باب للمكثرين من الصلاة ، وباب للمتصدقين وباب للمجاهدين ، فمن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة وهكذا .[2]

ثالثاً : درجات الجنة :

أن أهل الجنة متفاوتون فيما بينهم على حساب أعمالهم وتوفيق الله لهم وكذلك درجاتهم في الآخرة ، بعضها فوق بعض قال تعالى : ﴿ومن يأته

١- البخاري مع الفتح ، كتاب بدء الخلق باب صفة أبواب الجنة : (٦/٣٦٦) رقم ٣٢٤٤ .

٢- انظر فتح الباري : ٦/٣٧٨

مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾. (طه : ٧٥)

وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم قال تعالى : ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريدثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ، كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظوراً ، انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾.(الإسراء : ١٨-٢١)

فبين سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر ما يتفاضل الناس في الدنيا وأن درجات الآخرة أكبر من درجات الدنيا. قال تعالى : ﴿لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى﴾. (الحديد : ١٠).

وقال تعالى : ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾. (النساء : ٩٥-٩٦).

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله ، أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، فقالوا يارسول الله ، أفلا نبشر الناس ؟! قال : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فاذا

سألتم الله ، فسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة، أراه قال : وفوقه عرش الرحمن منه تفجر أنهار الجنة». [1]

رابعاً : أنهار الجنة :

ذكر القرآن الكريم أنهار الجنة في آيات عديدة قال تعالى : ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾.

قال تعالى : **﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير أسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾**. (محمد : ١٥).

ومن الأنهار التي ذكرها النبي ﷺ في أحاديثه في الجنة مارواه البخاري عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «رفعت لي السدرة ، فاذا أربعة أنهار نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فأما الظاهران فالنيل والفرات ، وأما الباطنان : فنهران في الجنة». [2]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة». [3] ومن أنهار الجنة الكوثر الذي أعطاها لله لرسوله ﷺ ، ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : «بينما أنا أسير في الجنة ، إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف ؛ قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فاذا طيبة

١- البخاري مع الفتح ،كتاب الجهاد ، باب درجات المجاهدين : ٦/ ١٤

٢- صحيح البخاري ، كتاب الأشربة ، باب شرب اللبن مع الفتح : ١٠/ ٧٣

٣- صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة :٤/ ٢١٨٣

أوطينه مسك أذفر» شك الرواي (هدبة).[1] وقد فسر ابن عباس الكوثر بالخير الكثير الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ وبين سعيد بن جبير أن النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه .[2]

خامساً : عيون الجنة :

في الجنة عيون كثيرة مختلفة الطعوم والمشارب قال تعالى : ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ .(الحجر :٤٥) : ﴿إن المتقين في ظلال وعيون﴾ . (المرسلات : ٤١) وقال في وصف الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف ربه ﴿فيهما عينان تجريان ﴾. (الرحمن : ٥٠) وقال في وصف الجنتين اللتين دونهما ﴿فيهما عينان نضاختان﴾. (الرحمن : ٦٦).

وفي الجنة عينان يشرب المقربون ماءهما صرفاً غير مخلوط ، ويشرب منهما الأبرار الشراب مخلوطاً ممزوجاً بغيره ، العين الأولى : عين الكافور قال تعالى : ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ، عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾ .(الإنسان :٥-٦) فقد أخبر أن الأبرار يشربون - شرابهم ممزوجاً من عين الكافور - بينما عباد الله يشربونها خالصاً.

العين الثانية : عين التسنيم ، قال تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، ومزاجه من تسنيم، عيناً يشرب بها المقربون﴾ . (المطففين: ٢٢-٢٨) ومن

١- صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الرقاق، باب في الحوض : ٤٧٢/١١ .

٢- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض فتح الباري : ٤٧٥/١١ .

عيون الجنة عين تسمى السلسبيل ، قال تعالى : ﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً، عيناً فيها تسمى سلسبيلاً﴾. (الإنسان :١٧-١٨).

سادساً : قصور الجنة وخيامها :

يبني الله لأهل الجنة مساكن طيبة حسنة كما قال تعالى : ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾. (التوبة : ٧٢) وقال تعالى : ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾. (سبأ :٣٧) وقال في جزاء عباد الرحمن :﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾.(الفرقان :٧٥) وقال تعالى واصفا هذه الغرفات : ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الانهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾.(الزمر :٢٠)

وقد أخبرنا المولى عز وجل أن في الجنة خياماً قال تعالى : ﴿حور مقصورات في الخيام﴾. (الرحمن : ٧٢) وهذه الخيام عجيبة ، فهي من لؤلؤ بل هي من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً وفي بعض الروايات عرضها ستون ميلاً ففي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال : «الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ثلاثون ميلاً ، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون».[1]

سابعاً : نور الجنة :

قال ابن كثير في تفسيرقوله تعالى : ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ، تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾. (مريم : ٦٢-٦٣) أي في وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات

١- صحيح البخاري مع الفتح . كتاب بدء الخلق ، باب صفة الجنة : ٦/٣٦٦

تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار).[1] ويقول ابن تيمية في هذا الموضوع : (والجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، ولا ليل ، ولانهار ، لكن تعرف البكرة والعشية بنور يظهر من قبل العرش).[2]

ثامناً : وصف بعض شجر الجنة :

سدرة المنتهى : وهذه الشجرة ذكرها المولى عزوجل في كتابه العزيز وأخبر سبحانه أن رسولنا ص رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عندها ، وأن هذه الشجرة عند جنة المأوى التي غشيها ما غشيها مما لا يعلمه إلا الله عندما رآها الرسول ﷺ قال تعالى : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وماطغى﴾. (النجم : ١٤-١٧).

شجرة طوبى : وهذه شجرة عظيمة كبيرة تصنع ثياب أهل الجنة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها».[3]

الشجرة التي يسير الراكب في ظلها مائة عام : هذه شجرة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقها ، وقد بين الرسول ﷺ عظم هذه الشجرة بأن أخبر أن الراكب لفرس من الخيل التي تعد للسباق يحتاج إلى مائة عام حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه. ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة

١- تفسير ابن كثير :٤/ ٤٧١

٢- مجموع فتاوى ابن تيمية :٤/ ٣١٢

٣- سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني :٤/ ٦٣٩ ، رقم الحديث :١٩٨٥

سنة، واقرؤوا إن شئتم ﴿وظل ممدود﴾. (الواقعة : ٣٠)».[1]

وهذا يدل عن خلق بديع وقدرة الصانع البديع سبحانه وتعالى .

تاسعاً : نعيم أهل الجنة :

لقد مدح القرآن الكريم نعيم الآخرة وذم الدنيا الفانية ورغب في ما عند الله على متاع الدنيا القريب العاجل في مواضع كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عندالله وما عند الله خير للأبرار﴾. (آل عمران : ١٩٨) وقوله : ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متَّعْنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ .(طه :١٣١) وقوله : ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾. (آل عمران : ١٤-١٥) والآيات في هذا الباب كثيرة.

عاشراً : طعام أهل الجنة وشرابهم :

ذكر الله سبحانه وتعالى أن في الجنة ماتشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب : ﴿وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون﴾. (الواقعة : ٢٠) ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾. (الزخرف : ٧١) وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون : ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾. (الحاقة : ٢٤).

١- البخاري مع الفتح، كتاب بدء الخلق،باب ما جاء في صفة الجنة : ٦/٣٦٨

الحادى عشر : خمر أهل الجنة .

من الشراب الذي يتفضل الله به على أهل الجنة الخمر ، وخمر الجنة خالي من العيوب والآفات التي تتصف بها خمر الدنيا ، فخمر الدنيا تذهب العقول ، وتصدع الرؤوس ، وتوجع البطون ، وتمرض الأبدان ، وتجلب الاسقام ، وقد تكون معيبة في صنعها أو لونها أو غير ذلك ، أما خمر الجنة فإنها خالية من ذلك كله ، وجميلة صافية رائعة.[1] قال تعالى : ﴿**يطاف عليهم بكأس من معين، بيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ولاهم عنها ينزفون**﴾. (الصافات : ٤٥-٤٧) فقد وصف الله جمال لونها (بيضاء) ثم بين أنها تلذ شاربها لا يمل من شربها ﴿**ولا هم عنها ينزفون**﴾. (الصافات : ٤٧) وقال في موضع آخر يصف خمر الجنة : ﴿**يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون**﴾. (الواقعة : ١٧-١٩).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات : (لا تصدع رؤوسهم ، ولا تنزف عقولهم ، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة ، وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء والبول ، فذكر الله خمر الجنة ، ونزهها عن هذه الخصال).[2]

وقال تعالى في موضع آخر : ﴿**يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك**﴾. (المطففين : ٢٥-٢٦) والرحيق الخمر ، ووصف هذا الخمر

١- انظر : اليوم الأخر الجنة والنارعمر الأشقر : ٢٣٠

٢- تفسير ابن كثير : ٦/ ٥١٤

بوصفين : الأول أنه مختوم أي موضوع عليه خاتم الأمر الثاني : أنهم إذا شربوه وجدوه في ختام شرابهم له رائحة المسك.[1]

الثاني عشر : طعام أهل الجنة وشرابهم لا دنس معه :

الجنة دار خالصة من الأذى ، وأهلها مطهرون من أوساخ أهل الدنيا، ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ص :« أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ،لا يبصقون فيها ، ولا يمتخطون ، ولا يتغوّطون».[2]

وليس هذا خاص بأول زمرة تدخل الجنة ، وإنما هو عام في كل ما يدخل الجنة ، ففي رواية عند مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة ثم هم بعد ذلك منازل ، لا يتغوطون ، ولا يتبولون ، ولا يمتخطون، ولا يبزقون».[3]

فالذي يتفاوت فيه أهل الجنة مما نص عليه في الحديث قوة نور كل منهم، أما خلوصهم من الأذى فإنهم يشتركون فيه جميعاً، فهم لا يتغوطون ولا يتبولون ، ولا يتفلون ، ولا يبزقون ، ولا يمتخطون. وفضلات الطعام والشراب تتحول إلى رشح كرشح المسك يفيض من أجسادهم، كما يتحول بعض منه إلى جشاء ولكنه جشاء تنبعث منه روائح طيبة عبقة عطرة ، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن

١- المرجع السابق : ٢٣٠

٢- رواه البخاري : كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة : ٣٦٧/٦

٣- رواه مسلم، كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل لجنة :٢١٨٨/٤، رقم الحديث : ٢٨٣٤

أهل الجنة يأكلون فيهاويشربون، ولايتفلون ، ولا يتبولون ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون. قالوا : فما بال الطعام ؟ قال جشاء كجشاء المسك» .[1]

الثالث عشر : آنية طعام أهل الجنة وشرابهم :

آنية طعام أهل الجنة ، التي يأكلون ويشربون بهامن الذهب والفضة قال تعالى : ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾. (الزخرف : ٧١) أي وأكواب من ذهب ، وقال : ﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدروها تقديراً﴾. (الإنسان : ١٥) أي اجتمع فيها صفاء القوراير وبياض الفضة.

ومن الآنية التي يشربون بها الأكواب والأباريق والكؤوس : ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾. (الواقعة :١٧) والكوب ما لا أذن له ولا عروة ولا خرطوم ، والأباريق: ذوات الأذان والعرى والكأس القدح الذي فيه الشراب.

الرابع عشر : لباس أهل الجنة وحليهم ومباخرهم :

أهل الجنة يلبسون فيها الفاخر من اللباس ، ويتزينون فيها بأنواع الحلي من الذهب والفضة واللؤلؤ ، فمن لباسهم الحرير ، ومن حلالهم أساور الذهب والفضة واللؤلؤ قال تعالى : ﴿ويحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾. (فاطر : ٣٣) ﴿وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾. (الإنسان : ٢١) وملابسهم ذات ألوان ، ومن ألوان الثياب التي يلبسون الخضر من السندس والاستبرق :

١- المرجع السابق : ٢١٨٠/٤ ، رقم الحديث :٢٨٣٥.

﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾. (الكهف : ٣١).

ولباسهم أرقى من أي ثياب صنعها الإنسان ، فقد روى البخاري في صحيحة عن البراء بن عازب[١] رضي الله عنه قال : «أتي الرسولُ ﷺ بثوب من حرير ، فجعلوا يعجبون من حسنه ولينه ، فقال رسول الله ﷺ : لمناديل سعد بن معاذ[٢] في الجنة أفضل من هذا» .[٣]

وقد أخبر الرسول ﷺ أن لأهل الجنة أمشاطاً من الذهب والفضة ، وأنهم يتبخرون بعود الطيب ، مع أن روح المسك تفوح من أبدانهم الزاكية ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ في صفة الذين يدخلون الجنة : «آنيتهم الذهب والفضة ، وأمشاطهم الذهب ، ووقود مجامرهم الألوة - عود الطيب - ورشحهم المسك» .[٤]

وثياب أهل الجنة وحليهم لا تبلى ولا تفنى ، ففي صحيح مسلم عن

١- هو البراء بن عازب بن الحارث الأنصارى الأوسي ، أبو عمارة وقيل أبو عمرو هو وأبوه صحابيان، شهد أحد وما بعدها واستصغر يوم بدر وشهد مع علي رضي الله عنه الجمل وصفين وحرب الخوارج مات سنة اثنتين وسبعين من الهجرة : انظرالإصابة :١/ ١٤٦-١٤٧

٢- هو أبو عمر سعد بن معاذ بن النعمان بن امرء القيس بن زيد بن عبدالأشهل الأوسي الأنصاري سيد الأوس رمي يوم الخندق بسهم فعاش بعد ذلك شهر حتى حكم في بني قريظة حكمه المشهور الذي وافق فيه حكم الله من فوق سبع سموات وبعد ذك مات بسبب انتقاض جرحه وذلك سنة خمس للهجرة : انظر الإصابة :٢/ ٣٥

٣- صحيح البخاري مع الفتح ، كتاب بدء الخلق باب ماجاء في صفة الجنة :٦/ ٣٦٧ رقم الحديث : ٣٢٤٨ .

٤- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب في صفة الجنة، رقم ٣٢٤٦ .

أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «من يدخل الجنة ينعم لا ييأس ، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه».[1]

الخامس عشر : فرش أهل الجنة :

فرش أهل الجنة عظيمة القدر ، بطائنها من الإستبرق، فما بالك بظاهرها، وهناك ترى النمارق مصفوفة على نحو يسر الخاطر ويبهج النفس والزرابي مبثوثة على شكل منسق متكامل قال تعالى : ﴿فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة﴾. (الغاشية : ١٣-١٦) ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾. (الرحمن : ٥٤).

﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾. (الرحمن : ٧٦) والمراد بالنمارق : المخادّ والوسائد والمساند ، والزرابي : البسط، والعبقري : البسط الجياد ، والرفرف ، رياض الجنة وقيل نوع من الثياب ، والأرائك : السرر.

السادس عشر : خدم أهل الجنة :

يخدم أهل الجنة ولدان ينشئهم الله لخدمتهم ، يكونون في غاية الجمال والكمال ، كما قال تعالى : ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴾. (الواقعة :١٧-١٨).

قال ابن كثير رحمه الله : (يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان أهل الجنة (مخلدون) أي على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن ، ومن فسرهم بأنهم مخرصون، في آذانهم الاقرطة ، فإنما عبر عن المعنى، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون

١- صحيح مسلم كتاب الجنة ، باب في دوام نعيم الجنة :٢١٨١/٤ ، رقم الحديث : ٢٨٣٦.

الكبير وقوله تعالى : ﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾. (الإنسان : ١٩) أي إذا رأيتهم في إنتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن الوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن).[1]

السابع عشر : اجتماع أهل الجنة وأحاديثهم :

أهل الجنة يزور بعضهم بعضاً، ويجتمعون في مجالس طيبة يتحدثون ويذكرون ما كان منهم في الدنيا ، وما مَنَّ الله به عليهم من دخول الجنان ، قال تعالى في وصف اجتماع أهل الجنة : ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرور متقابلين﴾. (الحجر :٤٧).

وحدثنا القرآن عن أصناف الأحاديث التي يتكلمون بها في مجتمعاتهم : ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فَمَنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾. (الطور :٢٥) ومن ذلك تذكرهم أهل الشر الذين كانوا يشككون أهل الإيمان ويدعونهم إلى الكفران : ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قال قائل منهم إني كان لي قرين ، يقول أإنك لمن المصدقين ، أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون ، قال هل أنتم مطلعون، فاطلع فرآه في سواء الجحيم ، قال تالله إن كدت لتردين ، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين، أفما نحن بميتين، إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين، إن هذا لهو الفوز العظيم، لمثل هذا فليعمل العاملون﴾. (الصافات :٥٠-٦١).

١- تفسير ابن كثير: ٧/ ١٨٤.

الثامن عشر : نساء أهل الجنة :

زوجة المؤمن في الدنيا زوجته في الآخرة إذاكانت مؤمنة قال تعالى : ﴿جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾. (الرعد : ٢٣) وهم في الجنات منعمون مع الأزواج ، يتكئون في ظلال الجنة مسرورين فرحين : ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾. (يس : ٥٦) ﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون﴾. (الزخرف : ٧٠).

التاسع عشر : الحور العين :

قال تعالى : ﴿كذلك وزوجناهم بحور عين﴾. (الدخان : ٥٤) والحور : جمع حوراء، وهي التي يكون بياض عينها شديد البياض ، وسواده شديد السواد ، والعين : جمع عيناء ، والعيناء هي واسعة العين. وقد وصف الله في القرآن الحور العين بأنهن كواعب أتراب قال تعالى : ﴿إن للمتقين مفازاً ، حدائق وأعناباً ، وكواعب أتراباً﴾. (النبأ : ٣١-٣٣) والكاعب : المرأة الجميلة التي برز ثديها ، والأتراب المتقاربات في السن ، والحور العين من خلق الله في الجنة، أنشأهن الله إنشاء فجعلهن أبكاراً ، عرباً أترابا : ﴿إنا إنشأناهن إنشاء ، فجعلنهن أبكاراً ، عرباً اترابا﴾.(الواقعة :٣٥-٣٧) وكونهن أبكارا يقضي أنه لم ينكحهن قبلهم أحد، كما قال تعالى : ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾. (الرحمن : ٥٦).

وقد حدثنا القرآن عن جمال نساء الجنة فقال : ﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾. (الواقعة : ٢٢) والمراد بالمكنون : المخفي المصان ، الذي لم يغير صفاء لونه ضوء الشمس ، ولا عبث الأيدي ، وشبههن في موضع آخر

بالياقوت والمرجان : ﴿فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان﴾. (الرحمن : ٥٦-٥٨).

والياقوت والمرجان حجران كريمان فيهما جمال ، ولهما منظر حسن بديع ، وقد وصف الحور بأنهن قاصرات الطرف ، وهن اللواتي قصرن بصرهن على أزواجهن ، فلم تطمح أنظارهن لغير أزواجهن وقد شهد الله لحور الجنة بالحسن والجمال ، وحسبك أن شهد الله بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال ﴿فيهن خيرات حسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات في الخيام﴾ . (الرحمن : ٧٠-٧١). ونساء الجنة لسن كنساء الدنيا، فإنهن مطهرات من الحيض والنفاس ، والبصاق والمخاط والبول والغائط ، وهذا مقتضى قوله تعالى : ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾. (البقرة : ٢٥).

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن جمال نساء أهل الجنة ، ففي الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالﷺ : «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون ولا يمتخطون ،ولا يتغوطون ،وآنيتهم فيها الذهب ،أمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوه، ورشحهم من وراء اللحم من الحسن».[١]

وانظر إلى هذا الجمال الذي يحدث عنه الرسول ﷺ هل تجد له نظيراً مما تعرف؟ «ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحاً ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها».[٢]

١- رواه البخاري، كتاب الخلق، صفة الجنة، فتح الباري : ٣٦٧/٦.

٢- البخاري مع الفتح كتاب الجهاد، باب وزوجناهم بحور عين : ١٩/٦

العشرون : أفضل ما يعطاه أهل الجنة : (النظر إلى وجهه الكريم رضوان الله).

قال الطحاوي : (والرؤية حق لأهل الجنة ، بغير إحاطة ولا كيفية ،كما نطق به كتاب ربنا : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾. (القيامة : ٢٢-٢٣) وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه ، وكل ما جاء في ذلك الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال ومعناه على أنه أراد أن لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولامتوهمين بأهوائنا ، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه).[1]

وقد صرح الحق تبارك وتعالى برؤية العباد لربهم في جنات النعيم : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾. (القيامة : ٢٢).

والكفار والمشركون يحرمون من هذا النعيم العظيم ، والتكرمة الباهرة : ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾. (المطففين : ١٥).

قال رسول الله ﷺ : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة ، وتنجنا من النار؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» ، زاد في رواية : «ثم تلا هذه الآية : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾. (يونس : ٢٦) وأما عن رضوان الله الذي يعطي لأهل الجنة فعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى يقول يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير كله في يديك ،

١- الطحاوية : ٢٠٣

فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لانرضى يارب وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يارب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» .[1]

الحادى والعشرون : آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين :

يمر المؤمنون في الموقف العظيم بأهوال عظام ، ثم يمرون على الصراط فيشاهدون هولاً ورعبًا، ثم يدخلهم الله جنات النعيم بعد أن أذهب عنهم الحزن ، فيرون ما أعد الله لهم فيها من خيرات عظام ، فترتفع ألسنتهم تسبح ربهم وتقدسه ، فقد أذهب عنهم الحزن ، وصدقهم وعده وأورثهم الجنة : ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ . (فاطر : ٣٣-٣٤).

وآخر دعواهم في الجنات النعيم الحمد لله رب العالمين : ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد الله رب العالمين﴾ . (يونس : ١٠).

وإلى هنا أرجو أن أكون قد بينت قضية الإيمان باليوم الآخر من خلال القرآن الكريم وهدي سيد المرسلين ﷺ وقد لمست من خلال بحثي ملامح الوسطية من حكمة قرآنية واستقامة ربانية واعتدال وعدل في الأحكام ووضع طالب الحقيقة على صراط مستقيم.

١- مشكاة المصابيح للبغوي : ٨٨/٣.



الفصل السابع

وسطية القرآن في القضاء والقدر

تمهيد :

هذه مباحث في باب القضاء والقدر ، ذلك الباب العظيم ، الذي لا شك في أنه من أعظم أبواب العقيدة وأهمها، فهو أحد أركان الإيمان الستة التي وردت في حديث جبريل - عليه السلام - ولا يؤمن إنسان على الحقيقة حتى يؤمن به ، فالإيمان به تمام التوحيد ، كما قال ابن عباس - رضي الله عنه : (القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده ، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض توحيده).[1]

(والقدر هو قدرة الله ، كما قال الإمام أحمد - رحمه الله -).[2] فالذي يكذب به مكذب لقدرة الله عز وجل - ومما يدل على أهميته ما يترتب على الإيمان به من عظيم الثمرات على الأفراد والمجتمعات في الدنيا وفي الآخرة، ومما يدل على أهميته أن كتب العقيدة أهتمت به أيما اهتمام ، وأطالت في ذكره ، والحديث عنه كالإبانة لابن بطة ، والشريعة للآجرى ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ، والحجة في بيان المحجة للأصبهاني وغيرها .

١- مجموع الفتاوى لابن تيمية :٣/ ١١٣

٢- المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد :١/ ١٣٥.

ففهم هذا الباب على الوجه الصحيح والإلمام به - ولو على سبيل الإجمال - من الأهمية بمكان ، وقد جاء هذا الباب في القرآن الكريم واضحاً وشرحه النبي ﷺ أتم الشرح، وتلقاه الصحابة عنه فكانوا رضوان الله عليهم أعظم الناس فهماً لحقيقة الإيمان بالقدر ، فأثر ذلك فيهم أيما تأثير، فكانوا أشجع الناس ، وأكرمهم ، وأتقاهم ، ثم دب في هذه الأمة داء الأمم ، وقد ركبت سنن من كان قبلها ، فدخلت الفلسفات اليونانية والهندية وعقائد اليهود المحرفة والنصارى الزائغة إلى بلاد المسلمين ، وظهرت بدعة القدرية في البصرة ودمشق، فوقع أول شرك في الأمة وهو نفي القدر ، فتصدى علماء السنة لتلك البدعة وبينوا عوارها ودحضوا باطلها وأظهروا الحق ونشروه.

ومما لا شك فيه أن باب القدر - أعوص أبواب العقيدة ، فلقد حار النظار والعقلاء قديماً وحديثاً - في شأنه وفي فهم حقيقته ، فلم يصلوا إلى اليقين والصواب ، ذلك لأنهم التمسوا الهدى في غير مظانه ، فحاروا وحيروا ، وتعبوا وأتعبوا. وقد وفق الله سبحانه وتعالى أهل السنة والجماعة لفهم هذا الباب وذلك لاتباع ما جاء في الكتاب والسنة وآثارالسلف الصالح، إذ لا يمكن لأحد أن يفهم هذا الباب على وجه التفصيل فهماً صحيحاً - إلا كما فهمه أهل السنة والجماعة - سلف هذه الأمة الصالح وإذا نظرت إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ انتظم العقد في هذا الباب وظهرت ملامح الوسطية فيه وسلمت من الإفراط والتفريط والغلو والجفا والبعد عن الصراط المستقيم. وتجد القرآن الكريم والسنة المطهرة ترشدنا إلى أبواب يستطيع العقل البشري أن يجول فيها في هذا الباب وتنهانا عن أمور يستحيل العقل أن يصل إليها.

فالأمور التي يستطيع العقل البشري أن يجول فيها ويفهمها من منطق النصوص ، كالبحث في مراتب القدر وأقسام التقدير ، وخلق أفعال العباد إلى غير ذلك من مباحث القدر.

والأمور التي نهانا الشرع عن الخوض فيها مثل : الخوض في القدر بالباطل وبلا علم ولا دليل ، والاعتماد في معرفة القدر على العقل البشري القاصر بعيداً عن هدي الكتاب والسنة ؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك على وجه التفصيل ، وكذلك البحث عن الجانب الخفي في القدر الذي هو سر الله في خلقه، وكذلك التنازع في القدر الذي يؤدى إلى اختلاف الناس فيه وافتراقهم، فهذا مما نهينا عنه. وبذلك يتضح للباحث منهج الوسطية في هذا الباب إذا ألم بأطراف الموضوع ، معتمداً على كتاب الله وسنه رسوله ﷺ .

المبحث الأول

تعريف القضاء والقدر، والعلاقة بينهما

أولاً : القدر في اللغة : (مصدر قدر يقدر قدراً وقد تسكن داله). [1]

قال ابن فارس : (قدر : القاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته ؛ فالقدر مبلغ كل شيء، يقال : قدره كذا أي مبلغه ، وكذلك القدر ، وقدرت الشيء أقدره وأقدر من التقدير). [2]

والقدر : محركة : القضاء والحكم، وهو ما يقدره - عز وجل - من القضاء ، ويحكم به من الأمور .

والتقدير : التروية والتفكير في تسوية أمر ، والقدر كالقدر ، وجميعها جمعها أقدار . [3]

والقدر في الاصطلاح : (تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه ، واقتضته حكمته). [4]

أو هو : (ما سبق به العلم وجرى به القلم ، مما هوكائن وأنه - عزوجل - قدر مقادير الخلائق ، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل ، وعلم - سبحانه وتعالى - أنها ستقع في أوقات معلومة عنده - تعالى -

---

١- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، :٤/ ٢٢

٢- معجم مقاييس اللغة ، كتاب القاف ، باب القاف والدال : ٥/ ٦٢

٣- القاموس المحيط فصل القاف مادة قدر : ٥٩١ .

٤- رسائل في العقيدة للشيخ بن عثيمين : ٣٧

وعلى صفات مخصوصة ، فهي تقع على حسب ماقدرها).[1]

ثانياً : القضاء في اللغة :

أ- القضاء في اللغة : (هو الحكم والصنع ، والختم ، والبيان ،وأصله القطع ، والفصل ، وقضاء الشيء ، وإحكامه ، وإمضاؤه ، والفراغ منه فيكون بمعنى الخلق).[2]

ب- العلاقة بين القضاء والقدر :

١- قيل : (المراد بالقدر التقدير، وبالقضاء الخلق ، كقوله تعالى : ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ أي خلقهن ، فالقضاء والقدرأمران متلازمان ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر ، والآخر بمنزلةالبناء وهو القضاء ، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه).[3]

٢- وقيل العكس : (فالقضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل ، والقدر هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق).[4]

قال ابن حجر العسقلاني : (وقالوا أي العلماء : القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل ، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله).[5]

٣- قيل : إذا اجتمعا افترقا بحيث يصبح لكل واحد منهما مدلول

١- لوامع الانوار البهية للسفاريني : ٣٤٨/١

٢- نظر : معجم مقاييس اللغة، كتاب القاف، باب القاف والضا : ٩٩/٥

٣- النهاية في غريب الحديث : ٧٨/٤

٤-البخاري مع الفتح، كتاب القدر : ٤٨٦/١١

٥- انظر : الدرر السنية في الاجوبة النجدية : ٥١٢/١-٥١٣

بحسب مامر في القولين السابقين ، وإذا افترقا إجتمعا ، بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه الأخر.[1] وقوله تعالى : ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾.(التوبة :٤٦) وقوله تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾. (الانعام : ٢٨) وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال سئل النبي ﷺ عن أبناء المشركين، فقال : «الله أعلم بما كانوا عاملين».[2] وقال ﷺ : «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار».[3]

١- البخاري مع الفتح، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين : ٥٠٢/١١، رقم الحديث : ٦٥٩٧.

٢- أخرجه مسلم ، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي : ٢٠٣٧/٤، رقم الحديث : ٢٦٤٧.

٣- مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم موسى : ٢٤٤/٤ ، رقم : ٢٦٥٣.

المبحث الثاني

الإفراط والتفريط في باب القدر

قد ضل في باب القدر فرق شتى من الناس، ومنشأ ضلالهم اتباعهم للهوى ونظرهم إلى النصوص بعين عوراء، فيأخذون ما وافق أهواءهم، ويعمون، أو يتعامون عن غيره ومن أشهر الفرق التي ضلت في هذا الباب ما يلي :

١- الفلاسفة :

الذين أنكروا (علمه تعالى بالجزئيات، وقالوا إنه يعلم الأشياء على وجه كلي ثابت، وحقيقة قولهم أنه لا يعلم شيئاً، فإن كل ما في الخارج هو جزئي).[1] وقد تأثراليهود والنصارى بالفسلفة القديمة وتجد في كتبهم المحرفة ما يفيد إنكار علم الله تعالى كما في سفر التكوين[2] حيث زعم اليهود أن الله تعالى : (لا يعلم الغيب ويحتاج علامات يميز بها بني إسرائيل من غيرهم ، فوضع الدم علامة على بيوت بني إسرائيل ليميزها عن بيوت المصريين حتى لا يهلكهم).[3] وأما النصارى جعلوا المخلوق إلهاً ونفوا عن إلههم أن تكون له إرادة ومشيئة وعلم بما يحصل له أو لمخلوقاته تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً[4] وهذا بسبب بعدهم عن الكتب المقدسة الصحيحة وتأثرهم بالفلسفات

١- درء تعارض العقل والنقل : ٩/٣٩٧.

٢- سفر التكوين إصحاح ١٢ فقرة: ١٢-١٣

٣- وسطية أهل السنة بين الفرق : ٢٤٩

٤- الحكمة في الدعوة إلى الله :٤٤٤

الباطلة ويكفى في الرد عليهم قوله تعالى : ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾. (الأنعام : ٥٩).

٢- من يعتقدون تأثير الكواكب والأسماء والأبراج :

كحال الذين ينظرون في النجوم والأسماء، ليستطلعوا من خلالها أسرار القدر ، فتجدهم يقولون : إذا ولد فلان في البرج الفلاني أو كان يحمل الاسم الفلاني فسيصيبه كذا وكذا في يوم كذا وكذا ، ومما يقولون- أيضاً - من اسمك تعرف حظك ، ومن شهر ميلادك تعرف حظك ، ونحو ذلك من هذا الهذيان والتخرص والرجم بالغيب، فهذا ضلال في باب القدر، لأن القدر غيب والغيب لا يعلمه إلا الله عزوجل.

٣- غلاة الصوفية :

الذين غلوافي الجبر : (ممن يزعمون الترقي في مقام الشهود للحقيقة الكونية ، والربوبية الشاملة ، فيرون كل ما يصدر من العبد من ظلم، وكفر ، وفسوق هو طاعة محضة لأنها تجرى وفق ما قضاه الله وقدره وكل ما قضاه وقدره فهو محبوب لديه ، مرضي عنده، فإذا كان قد خالف أمر الشارع بارتكابه هذه المحظورات- فقد أطاع إرادة الله ، ونفذ مشيئته ، فمن أطاع الله في قضاءه وقدره هو كمن أطاعه في أمره ونهيه كلاهما قد قام بحق العبودية لله). [1] (ومن ثم فلا لوم ، ولا تثريب ،بل الكل مطيع بفعله لإرادة ربه ، فصححوا بذلك إيمان فرعون وعبدة العجل ، واليهود والنصارى

١- شرح نونية ابن القيم ، للهراس : ١/ ٣٧٢

والمجوس).[1]

كما صرح بذلك ابن[2] عربي الصوفي بقوله :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه دانِ

لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعي لغزلان ودير لرهبانِ

أدين بدين الحب أني توجهت وألواح توراة ومصحف قرآن

وبيت لأوثان وكعبة طائف ركائبه فالحب ديني وإيمانِ[3]

وكقول عبد الكريم الجيلي[4] ، وهو من أهل وحدة الوجود :

وأسلمت نفسي حيث أسلمني الهوى ومالي عن حكم الحبيب تنازع

فطوراً تراني في المساجد راكعا وإني طوراً في الكنائس راتع

ذا كنت في حكم الشريعة عاصياً فإني علم الحقيقة طائع[5]

وكما قال أحدهم :

أصبحت منفصلاً بما يختاره مني ففعلي كله طاعات

١- المعتزلة بين القديم والحديث ، لمحمد العبده ، طارق عبدالحكيم : ٥٨ .

٢- هو أبوبكر محمد بن على بن محمد العربي الحاتمي الطائي المعروف بمحي الدين بن عربي شيعي سوء كذاب من أهل وحدة الوجود قال أشياء منكرة عدها المحققون مروقاً وزندقة، مات سنة ٦٣٨ هـ، انظر : ميزان الاعتدال : ٣/٦٥٩ ، رقم ترجمته :٦٦٠٠ .

٣- رسائل وفتاوى في ذم ابن عربي الصوفي، د/ موسى الدويش : ٧٤ .

٤- هو عبدالكريم بن إبراهيم بن عبدالكريم الجيلي ، ابن سبط عبدالقادر الجيلاني ، من علماء المتصوفة له كتب كثيرة ، منها الإنسان الكامل ،والمناظرة الإلهية توفي عام ٨٣٢هـ انظر : الاعلام للزركلي : ٤/ ١٧٥- ١٧٦ .

٥- هذه هي الصوفية عبدالرحمن الوكيل : ٩٦ .

وهذا المذهب من أخبث المذاهب ، ولا يشك بكفر أصحابه ، بل هو من أقبح أنواع الكفر قال ابن تيمية رحمه الله : (فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات ، ولم يفرق بين المأمور ، والمحظور ، والمؤمنين والكفار ، وأهل الطاعة ، وأهل المعصية ، لم يؤمن بأحد من الرسل، ولا بشيء من الكتب ، وكان عنده إبليس وآدم سواء ، ونوح وقومه سواء، وفرعون وموسى سواء، والسابقون الأولون وكفار مكة سواء).[1] فلا يشك عاقل في كفره.

٤- الجبرية :

(وهم الذين غلوا في إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل - حقيقة لا بل هو في زعمهم لا حرية له ولا فعل، كالريشة في مهب الريح ، وإنما تسند إليه الأفعال مجازاً، فيقال : صلى وصام، وقتل، وسرق، كما يقال طلعت الشمس، وجرت الريح، ونزل المطر، فاتهموا ربهم بالظلم، وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه ومجاراتهم على ما ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث في تكليف العباد، وأبطلوا الحكمة في الأمر والنهي ألا ساء ما يحكمون)[2].

وهؤلاء في الحقيقة يزعمون أن الله هو الفاعل الحقيقي لأفعالهم، بخلاف ماعليه أهل السنة، الذين يقولون إن الله هو الخالق والعبد هو الفاعل، ولذا ترتب على فعله الثواب والعقاب، وهؤلاء - الجبرية - يسمون بالقدرية المشركية، لأنهم شابهوا المشركين في قولهم : ﴿لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ (الأنعام : ١٤٨) وهذا كلام ظاهر البطلان.

١- مجموع الفتاوى :٨/ ١٠٠

٢- انظر : شرح نونية ابن القيم للهراس :١/ ٣٧٢

٥- القدرية :

وهم أتباع معبد الجهني[١] وغيلان الدمشقي[٢]، وأتباع واصل بن عطاء[٣]، وعمرو بن عبيد[٤] من المعتزلة ، ومن وافقهم ، هؤلاء هم القدرية، وقولهم في القدر : إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة ، وليس لمشيئة الله تعالى ، وقدرته في ذلك أثر ، ويقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله ، وإنما العباد هم الخالقون لها ويقولون : (إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئته الشاملة ، وغلاتهم ينكرون أن يكون الله قد علمها ، فيجحدون بمشيئته الشاملة ، وقدرته النافذة ، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة ، لأنهم شابهوا المجوس الذين قالوا : إن للكون إلهين : إله النور : وهو خالق الخير ، وإله الظلمة : وهو خالق الشر.

والقدرية جعلوا لله شريكاً، بل شركاء في خلقه فزعموا أن العباد

١- هو المبتدع القدري معبد بن عبد الله بن علي الجهني البصري أول من قال بالقدر وكان ممن سمع الحديث عن ابن عباس وعمران بن حصين وانتقل إلى المدينة ونشر مذهبه فيها وكان قد تلقاه من رجل نصراني يسمى سوسن، وأخذ عن معبد غيلان الدمشقي قتله عبدالملك بن مروان وصلبه سنة ٨٠هـ الكامل لابن الأثير :٤/ ٧٥

٢- هو غيلان بن مسلم الدمشقي أبو مروان من البلغاء الذين أضلوا الناس، ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه وإليه تنتسب فرقة الغيلانية من القدرية، أفتى الإمام الأوزاعي بقتله فصلب على باب كيسان بدمشق بعد سنة ١٠٥هـ البداية والنهاية : ٣٤/٩ - ٣٥.

٣- واصل بن عطاء البصرى، الغزال المتكلم البليغ المتشدق، الذي كان يلثغ بالراء فلبلاغته هجر الراء وتجنبها في خطابه قال عنه أبو الفتح الأزدي : رجل سوء كافر ، كان من أجلاء المعتزلة مات ١٣١هـ انظر : ميزان الاعتدال :٤/٣٢٩

٤- عمرو بن عبيد بن باب ، أبو عثمان البصري المعتزلي القدري اعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه، سموا المعتزلة وكان يشتم الصحابة ويكذب في الحديث وهما لا تعمدا ، مات سنة ١٤٣هـ انظر : ميزان الاعتدال :٣/ ٢٧٣

يخلقون أفعالهم، واستدلوا استدلالاً أعوراً ببعض الآيات، كما في قوله - تعالى - : ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ (التكوير : ٢٨).

وقوله : ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (الكهف : ٢٩).

وأوّلوا ما عدا ذلك مما يخالف مذهبهم كما في قوله - تعالى- : ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ (التكوير : ٢٩) ومنشأ ضلال هؤلاء في البداية أنهم أرادوا تنزيه الله - عز وجل - عن الشر فوقعوا في نفي القدر، ويكفي في الرد عليهم قوله - تعالى : ﴿والله خلقكم وما تعلمون﴾ (الصافات : ٩٦).

المبحث الثالث

ظهور بدعتي نفي القدر والقول بالجبر

في أواخر عصر الصحابة رضوان الله عليهم ، كانت البداية الحقيقية لنشأة الاختلاف والكلام في القدر إذ نبغ في وقتهم معبد الجهني الذي قال بنفي القدر ، كما روى الإمام مسلم عن يحيى بن معمر[1]. قال (كان أول من قال في القدر بالبصره معبد إلجهني، ثم ذكر يحيي أنه لقي عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فقال يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القران ويتقفرون العلم[2] . . . وإنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف[3].

فقال ابن عمر منكراً عليهم ذلك : فإذا لقيت ذلك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر[4].

ومعبد إنما تلقي هذه المقالة عن رجل نصراني كان قد أسلم ثم تنصر مرة أخرى ، فكان معبد أول من نشر ذلك ونادى به وأظهره ولاسيما بالبصرة قال الإمام الأوزاعي[5] رحمه الله : (أول ممن نطق في القدر رجل تنصر ، فأخذ

١- يحي بن يعمر البصري نزيل مرو وقاضيها ثقة فصيح ، وكان يرسل ، مات قبل المائة انظر : ابن حجر التقريب :٢/٣٦١

٢- يطلبونه ويتتبعونه .

٣- أنف : أي مستأنف ، لم يسبق به قدر ولا علم من الله وإنما يعلمه بعد وقوعه انظر صحيح مسلم شرح النووي :١/١٥٦

٤- رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإسلام والإيمان :١/٣٦

٥- هو الإمام العابد الحجة الثقه عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى الفقيه روى عن كثيرمن التابعين=

المبحث الرابع

مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب القدر

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - سؤالاً عن القدر فأجاب عنه إجابة مطولة ضمنها مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في هذا الباب ومما قاله :

(مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره مادل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وهو أن الله خالق كل شيء ، وربه ومليكه ، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بها، من أفعال العباد ، وغير أفعال العباد. وأنه - سبحانه - ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته، وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءه ، بل هو قادر على كل شيء ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه ، وأنه سبحانه - يعلم ما كان ، وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وقد دخل في ذلك أفعال العباد، وغيرها وقدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، قدر آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة، وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان ، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابته إياها قبل أن تكون). [1]

إلى أن قال : (وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضاً على أن العباد

١- مجموع فتاوى ابن تيمية :٨/ ٤٤٩-٤٥٠.

مأمورون بما أمرهم الله به منتهيون عما نهاهم عنه ، ومتفقون على الإيمان بوعده ، ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة ، ومتفقون على أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه ، ولا محرم فعله ، بل لله الحجة البالغة على عباده).[1]

وقال : (ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها - مع إيمانهم بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كل شيء ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يضل من يشاء، ويهدى من يشاء - أن العباد لهم مشيئة وقدرة ، يفعلون بمشيئتهم، وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه، مع قولهم : إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله[2] كما قال تعالى : ﴿**كلا إنه تذكرة فن شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة**﴾. (المدثر : ٥٤-٥٦).

١- المرجع السابق :٨/ ٤٥٢

٢- المرجع السابق :٨/٤٥٩.

المبحث الخامس

الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والفطرة والعقل في باب القدر

دل على هذا الركن العظيم من أركان الإيمان الكتاب ، والسنة والإجماع ، والفطرة ، والعقل ، والحس .

أولاً : من القرآن : أما الأدلة من القرآن العظيم : فكثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾. (الأحزاب:٣٨) وقال تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾. (القمر :٤٩) وقال تعالى : ﴿وخلق كل شيء فقدر تقديراً﴾. (الفرقان : ٢).

ثانياً : السنة : أما الأدلة من السنة : فكما قال عليه الصلاة والسلام، كما في حديث جبرائيل عليه السلام :«وتؤمن بالقدر خيره وشره». [1]

وروى مسلم في الصحيح عن طاووس[2] قال : (أدركت ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : كل شيء بقدر ، قال وسمعت عبد الله بن عمر يقول : كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز . [3]

وقال ﷺ : «وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا

١- مسلم ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في القدر : ١/ ٣٨ رقم ٨.

٢- هو الإمام التابعي طاووس بن كيسان اليماني أبوعبدالرحمن الجندي ، أحد الأعلام علماء وأدبا وعملا أخذ عن جماعة من الصحابة وأخذ عنه جماعة توفي سنة ١٠٦هـ العبر : ١/ ٩٩ انظر : تهذيب التهذيب : ٥/ ٨.

٣- مسلم ، كتاب القدر باب كل شيء بقدر :٤/ ٢٠٤٥ رقم : ٢٦٥٥.

ولكن قل قدر الله وما شاء فعل». [1]

ثالثاً : الإجماع : أما الإجماع : (فقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله). [2]

رابعاً : الفطرة : أما الفطرة : فإن الإيمان بالقدر أمرمعلوم بالفطرة قديماً وحديثا ولم ينكره إلا الشواذ من الأمم، ولم يقع الخطأ في نفي القدر وإنكاره وإنما وقع في فهمه علي الوجه الصحيح، ولهذا قال سبحانه عن المشركين : ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾. (الأنعام : ١٤٨).

فهم أثبتوا المشيئة لله لكنهم احتجوا بها على الشرك ، ثم بين سبحانه أن هذا هو شأن من كان قبلهم ، كما في قوله : ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾. (الانعام :١٤٨) وكانت العرب في الجاهلية تعرف القدر ولا تنكره، ولم يكن هناك من يرى أن الأمرمستأنف ، وهذا ما نجده مثبوتا في أشعارهم، كما في قول عنترة[3] :

يا عبل أين من المنية مهربي ... إن كان ربي في السماء قضاها[4]

وكما في قول طرفة [5] :

١- مسلم كتاب القدر ، باب الأمر بالقوة وترك العجز :٢٠٥٢/٤ رقم ٢٦٦٤

٢- انظر : الإيمان بالقضاء والقدر لمحمد إبراهيم الحمد :٣٦

٣- هو عنترة بن شداد العبسي من شعراء الجاهلية من أصحاب المعلقات إشتهر بشجاعة فائقةواشعار نادرة انظر : شرح المعلقات للزوزني :١١٨

٤- ديوان عنتره :٧٤

٥- هو طرفة بن العبد بن سفيان من شعراء الجاهلية ومن أصحاب المعلقات قتل وهو ابن عشرين عاما انظر : شرح المعلقات :٧٨

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالـد[١] ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد[٢]

وقول لبيد(٣) :

صادفن منها غرة فأصبنهـا إن المنايا لا تطيش سهامها[٤]

خامساً : العقل : أما دلالة العقل فهي : أن العـقل الصحيح يقطع أن الله هو خالق هـذا الكون ، و مدبره ، ومالكه ، ولايمكن أن يـوجد على هذا النظـام البديع والتـناسق المتآلف ، والارتـباط الملتحـم بين الأسباب والمسـببات هكذا صدفه، إذ الموجود صدفه ليس لـه نظام في أصل وجوده ، فكيف يكون منتظماً حال بقائه وتطوره؟ فإذا تـقرر عقلاً أن الله هو الخالق لزم ألا يقع شيء في ملكه إلا وقد شاءه وقدره.

١- سيد من سادات العرب شريف النسب عظيم الحسب كثير الآل والأولاد .

٢- سيد من سادات العرب اشتهر بكثر المال ونجابة الأولاد وشرف النسب .

٣- هو لبيد بن ربيعة بن مالك العامري مخضرم من المعمرين ، ومات في خلافة معاوية وله معلقة مشهورة انظر شرح المعلقات : ٢٢٦

٤- ديوان لبيد بن ربيعة العامري :١٧١ .

المبحث السادس

مراتب القدر وأركانه

ومن وسطية القرآن الكريم وحكمته وإرشاده إلى الصراط المستقيم بيانه مراتب القدر والتي تسمى عند العلماء أحياناً بأركانه ، وضبطها وفهمها يعين المسلم على فهم باب القدر ، ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيقها كلها ، لأن بعضها مرتبط ببعض فمن أقر بها جميعاً اكتمل إيمانه بالقدر ، ومن انتقص واحداً منها أو أكثر اختل إيمانه بالقدر وهذه الأركان هي :

١- العلم ٢- الكتابة ٣- المشيئة ٤- الخلق .

المرتبة الأولى :

وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلاً، أزلاً ، وأبداً، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، أوبأفعال عباده ، فعلمه محيط بما كان ، وما سيكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون عن علمه الموجود ، والمعدوم ، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وقد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم ، فعلهم وأرزاقهم ، وآجالهم وأقوالهم، وأعمالهم، وجميع حركاتهم، وسكناتهم، وأهل الجنة.

وهذه المرتبة - وهي العلم السابق - اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليها جميع الصحابة، ومن تبعهم من هذه الأمة، وخالفهم مجوس هذه الأمة - القدرية الغلاة - والأدلة على هذه المرتبة كثيرة جداً منها قوله تعالى : ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب

والشهادة﴾. (الحشر : ٢٢). وقوله : ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾. (البقرة : ٢٢٥) وقوله : ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾. (سبأ : ٣)

المرتبة الثانية الكتابة :

وهي الإيمان بأن الله كتب ما سبق علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ ، وقد أجمع الصحابة ، والتابعون ،وجميع أهل السنة والحديث على أن كل ماهو كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب التي هي اللوح المحفوظ ، والذكر ، والإمام المبين ، والكتاب المبين ، والأدلة على هذه المرتبة كثيرة من الكتاب والسنة ، منها قوله تعالى : ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾. (الحج :٧٠). وقوله : ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾. (التوبة :٥١).

وقال عن محاجة موسي عليه السلام لفرعون : ﴿قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾. (طه : ٥١-٥٢).

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال : وعرشه على الماء» وقال النبي ﷺ : «ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من

الجنة أو النار ، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة». [1]

المرتبة الثالثة : المشيئة :

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ، ولا سكون ، ولا هداية ، ولا إضلال إلا بمشيئته ،وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، وجميع الكتب المنزلة من عند الله ، والفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وأدلة العقل ، والنصوص الدالة على هذا الأصل كثيرة جداً ، من الكتاب والسنة ، منها قوله تعالى : ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾. (القصص : ٦٨) وقوله : ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾. (الكهف : ٢٣).

وقال ﷺ : «إن قلوب بني آدم كلها بين صبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء»، ومشيئة الله النافذه ، وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان ، وسيكون يفترقان فيما لم يكن، ولا هو كائن، فما شاء الله كونه فهو كائن بقدرته لا محالة، ومالم يشأ كونه فإنه لا يكن لعدم مشيئته، لا لعدم قدرته عليه ، وقال تعالى : ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾. (البقرة : ٢٥٣) فعدم اقتتالهم ليس لعدم قدرة الله ، ولكن لعدم مشيئته ذلك ومثاله قوله تعالى : ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾. (الأنعام : ٣٥) وقوله تعالى : ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾. (الأنعام : ١٠٧).

١- مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي : ٢٠٣٨/٤، رقم : ٢٦٤٦.

مرتبة الخلق :

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها ، وصفاتها ، وحركاتها ، وبأن كل من سوى الله مخلوق موجد من العدم ، كائن بعد أن لم يكن ، وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية ، وأجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام ، واتفقت عليها الفطر ، والعقول السليمة ، والأدلة على هذه المرتبة كثيرة منها قوله تعالى : ﴿الله خالق كل شيء﴾. (الزمر :٦٢) وقوله : ﴿ لذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾. (تبارك : ٢).

وأخرج البخاري في خلق أفعال العباد عن حذيفة[١] رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ : «إن الله يصنع كل صانع وصنعته».[٢] هذه هي مراتب القدر الأربع التي لا يتم الإيمان بالقدر إلا بها.

وأفعال العباد داخلة في عموم خلقه تعالى، ولا يخرجها شيء من عموم قوله تعالى : ﴿الله خالق كل شيء﴾ فالأفعال هي من الله خلقاً وإيجاداً وتقديراً ، وهي من العباد فعلاً وكسباً ، فالله هو الخالق لأفعالهم ، وهم الفاعلون لها ، فنؤمن بجميع نصوص الكتاب والسنة الدالة على شمول خلق الله، وقدرته لكل شيء من الأعمال والأوصاف، كما نؤمن بنصوص الكتاب والسنة الدالة على أن العباد هم الفاعلون حقيقة للخير والشر، وعلى

١- هو حذيفة بن اليمان العبسي من نجباء الصحابة وهو صاحب سر النبي ﷺ في المنافقين كان يسأل رسول الله عن الشر ليتجنبه شهد مع النبي أحد وشهد فتوح العراق توفي بالمدائن : ٣٦هـ انظر : أسد الغابة : ١/ ٤٦٨ سير أعلام النبلاء : ٢/ ٣٦١.

٢- أخرجه البخاري في خلق افعال العباد والرد على الجهمية وأهل التعطيل : ٢٥ باب أفعال العباد.

هذا اتفق أهل السنة والجماعة[1].

ومن الأدلة الصريحة على ذلك قوله تعالى : ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾. (الصافات : ٩٦) قال المفسرون في معنى (ما) في الآية وجهان :

أحدهما : أن تكون بمعنى المصدر، فيكون المعنى والله خلقكم وعملكم.

والثاني : بمعنى الذي، فيكون المعنى، والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام ، وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله)[2].

١- انظر : المسائل والرسائل ، للإمام أحمد : ١٤٧/١ إلى ١٥٠

٢- زاد المسير لابن الجوزي : ٧٠/٧ وانظر : جامع البيان للطبري : ٧٥/١٢ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١٥/٤.

المبحث السابع

وسطية أهل السنة في مسألة أفعال العباد

هذه المسألة من أخطر مسائل القدر ، ولقد زلت فيها أقدام ، وحارت عقول وأفهام ، فقد اختلف الناس هل الأفعال والأعمال الصادرة عن العباد مخلوقة لله عزوجل مقدورة له، أم لا؟ وافترقوا في ذلك إلى طرفين وواسطة.

الطرف الأول (الجبرية) : سموا بذلك نسبة إلى الجبر لقولهم به في باب القدر . والجبر هو : إسناد فعل العبد إلى الله[1] أو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى.[2]

الطرف الثاني القدرية : وقولهم في أفعالهم العباد أنها غير مخلوقة لله عزوجل، وأنهم هم المحدثون لها دونه وهذا أصل من أصول مذهب المعتزلة[3].

الواسطة بين الطرفين (وهم أهل السنة) :

قولهم في أفعال العباد هو :

١- أنها مخلوقة لله عز وجل على الحقيقة.

٢- وهي فعل للعباد على الحقيقة.

٣- وأنهم قادرون على أفعالهم بقدرة حقيقية مؤثرة في وقوع الفعل منهم ، والله هو الذي أقدرهم على ذلك هذا هو مجمل قول أهل السنة في

١- التعريفات للجرجاني : ٧٤

٢- انظر الملل والنحل : ١/ ٨٥

٣- انظر : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار : ٧٧٢

هذه المسألة ، والذي عليه سلف الأمة وأئمتهم قال محرر مذهب أهل السنة وضابط أصوله وقواعده بحق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (وأما جمهور أهل السنة المتبعون للسلف والأئمة فيقولون : إن فعل العبد فعل له حقيقة ، ولكنه مخلوق لله مفعول لله ، لا يقولون هو نفس فعل الله ، ويفرقون بين الخلق والمخلوق والفعل والمفعول).[1]

إن الجبرية محقون في قولهم : إن الله خالق أفعال العباد ومخطئون في قولهم : إن العبد ليس بفاعل لأفعاله في الحقيقة وإنما الفاعل هو الله .

والقدرية: محقون في إثباتهم قدرة العبد على أفعاله، وفعله لها ومسؤوليته عنها.

ومخطئون في قولهم : إن العبد خالق أفعاله ، وإن الله ليس بخالق لأفعال العبيد ، فأثبتوا خالقين مع الله[2] .

وأهل السنة : قالوا : بما مع الطائفتين من حق فقالوا : الله خالق أفعال العباد على الحقيقة ؛ لأن العباد خلق له وأفعال المخلوقين مخلوقة ، لقوله : ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾. (الصافات : ٩٦) وقول النبي ﷺ : «إن الله يصنع كل صانع وصنعته».[3]

وقالوا : العبد فاعل لفعله حقيقة ، وقادر عليه بإقدار الله له عليه ، والله أثبت للعبيد فعلاً فقال : ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾. (البقرة : ١٩٧) وقال : ﴿فلا تبتئس بماكانوا يفعلون﴾. (هود : ٣٦) ونحو ذلك فلم

١- انظر : منهاج السنة :٢/٢٩٨

٢- وسطية أهل السنة بين الفرق : ٣٨١.

٣- الإمام البخاري ، خلق أفعال العباد :٢٥

ينفوا فعل العبد أصلاً كما قالت الجبرية ولم يجعلوا العباد خالقين لأفعالهم من دون الله عز وجل كما قالت القدرية.

فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، وعملوا بجميع النصوص الواردة في الباب ، ولم يضربوا بعضها ببعض ، فإن الجبرية عملوا بالنصوص الدالة على أنه خالق كل شيء وأن كل شيء بقدر الله وقضائه ومشيئته ، وأغفلوا مادل منها على أن للعبد فعلاً وقدرة وإرادة .

والقدرية أخذوا بالنصوص الدالة على أن العبد هو الفاعل لفعله على الحقيقة وأن له قدرة وإرادة ومشيئة ، واختياراً ، وأهملوا مادل منها على خلق الله لأفعال عبيده ، وعموم قدرته عليها ، ومشيئته لها والحق هو إعمال جميع النصوص كل فيما دل عليه ، وهو ما هدى له أهل السنة ، فليس في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تضارب أو تناقض ، والجمع بين ما في ظاهره شيء من ذلك ممكن عند أهل العلم والحق.[1]

وهذا ما فعله أهل السنة ، فكانوا بذلك وسطاً بين الطائفتين ، وجاء قولهم هدى بين الضلالتين ، ضلالة الجبر المفضي إلى تعطيل الأمر والنهي ، وإبطال الثواب والعقاب ، وضلالة نفي القدر الذي حاصله وجود خالقين من دون الله وتجويز أن يكون في ملكه مالايقدر عليه ولا يريده.[2]

١- انظر : وسطية أهل السنة بي الفرق :٣٨٢

٢- انظر : المرجع السابق :٣٨٣.

المبحث الثامن
وسطية أهل السنة في معنى إرادة الله ومشيئته ومحبته ورضاه

تباينت مواقف الفرق ، واختلفت أقوالها في باب إرادة الله ومشيئته ، فضل في ذلك طوائف وهدى الله المعتصمين بكتابه ، وسنة نبيه لما اختلفوا فيه من الحق.

١- فقالت المعتزلة : كل ما أراده الله وشاءه فقد أحبه ورضيه ، فسووا بين إرادته ومشيئته وبين محبته وجعلوهما باباً واحداً ثم قالوا : الكفر والفسوق والعصيان لا يحبهما ولا يرضاهما ؛ فلا يريدها ولا يشاؤها فأخرجوها من محيط إرادته وعموم مشيئته.[(١)]

٢- وقالت الجبرية : الكون كله بقضاء الله وقدره ، والله هو الخالق الفاعل في الحقيقة، وإن الإنسان مجبور على أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ، فكل ما وقع في الكون يكون محبوباً مرضياً له[(٢)]، سواء في ذلك الإيمان والكفر والطاعات والمعاصي، إذ كل ذلك وقع بإرادته ومشيئته، فسووا بين الإرادة والمحبة والرضى.[(٣)] لذلك احتجوا بالقدر على المعاصي، وقال قائلهم : ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا أباؤنا﴾. (الانعام : ١٤٨).

١- انظر شرح الأصول الخمسة :٤٦٤

٢- انظر شرح الطحاوية :٢٧٩.

٤- نفس المصدر :٢٧٩

٣- وقال أهل السنة : ليس معنى إرادة الله ومشيئته هو معنى محبته ورضاه، بل بينهما فرق لابد من التنبه له، فإن الإرادة في كتاب الله نوعان :

أ- إرادة شرعية دينية : وهي تتضمن معنى المحبة والرضي ، كقوله تعالى : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾. (البقرة : ١٨٥) وقوله : ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾. (النساء : ٢٧-٢٨).

ب - إرادة قدرية كونية خلقية : وهي التي بمعنى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات وذلك مثل الإرادة في قوله تعالى : ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾. (البقرة : ٢٥٣) وقوله : ﴿ولا ينفعكم نصحي أن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾. (هود : ٣٤) وقالوا : وإن كان يريد المعاصي إرادة كونية قدرية فهولا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها ويسخطها ، ويكرهها وينهي عنها ، هذا قول السلف والأئمة قاطبة فيفرقون بين إرادته التي تتضمن محبته ورضاه وبين إرادته ومشيئته الكونية القدرية التي لا يلزم منها المحبة والرضى.[1]

وبهذا التمييز بين الإرادتين يمتاز قول أهل السنة عن قول كل من فريقي القدرية والمعتزلة ، والجبرية ، الذين سووا بين الإرادة والمشيئة وبين المحبة والرضي ، فضل المعتزلة إذ ذهبوا إلى القول بأنه يقع في ملك الله ما لا يريد ولا يشاء ، وهلك أهل الجبر بقولهم إن الكفر والشرك والعصيان محبوبة لله

١- واسطية أهل السنة بين الفرق :٣٨٧

مرضية عنده ومنشأ ضلال الفريقين إنما هو تسويتهم بين الإرادة والمشيئة وبين المحبة والرضى وجعلهم معنى إرادته هومعنى محبته ورضاه.

وهدى الله أهل السنة لأحسن القول فميزوا وفرقوا بين الأمرين ، وخلصوا بالحق من بين الضلالتين ، وهذا عنوان وسطيتهم المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآية اعتدالهم وإتزانهم.(٢)

١- واسطية أهل السنة بين الفرق :٣٨٧

المبحث التاسع

أقسام التقدير التي جاءت في القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين

١- التقدير العام : وهو تقدير الرب لجميع الكائنات ، بمعنى علمه بها، وكتابته لها ومشيئته ،وخلقه لها ، ويدل على هذا النوع أدلة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾. (الحج :٧٠).

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - : «أن النبي ﷺ قال : كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال : وعرشه على الماء».[١]

٢- التقدير البشري : وهو التقدير الذي أخذ الله فيه الميثاق على جميع البشر بأنه ربهم وأشهدهم على أنفسهم بذلك ، والذي قدر الله فيه أهل السعادة وأهل الشقاوة.

قال تعالى : ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾. (الأعراف :١٧٢).

٣- وعن هشام بن حكيم[٢] أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : أتبتدأ

١- رواه مسلم كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى :٤/ ٢٠٤٤ رقم الحديث :٢٦٥٣

٢- هو هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد الاسدي له صحبة ورواية كان يأمر بالمعروف وينهي=

الأعمال أم قضى القضاء ؟ قال رسول الله ﷺ : «إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه فقال هؤلاء في الجنة ، وهؤلاء في النار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار». [1]

٤- التقدير العمري : وهو تقدير كل ما يجري على العبد في حياته إلى نهاية أجله ، وكتابه شقاوته ، أو سعادته ، وقد دل على ذلك حديث الصادق المصدوق في الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعا : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه ، وأجله وشقي أو سعيد». [2]

٥- التقدير السنوي : وذلك في ليلة القدر في كل سنة ويدل عليه قوله تعالى : ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾. (الدخان : ٤) وقوله : ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر﴾. (القدر : ٤-٦) قيل : يكتب فيها ـ أي هذه الليلة - ما يحدث في السنة من موت وحياة، وعز وذل ، ورزق ومطر ، حتى الحجاج يقال : يحج فلان ، يحج فلان ، روى هذا عن ابن عمر ، وابن عباس ، وكذا الحسن وسعيد بن الجبير. [3]

= عن المنكر ، فكان عمر إذا رأى منكرا قال أما ما عشت أنا وهشام بن حكيم فلا يكون هذا توفي في أول خلافة معاوية ، انظر : سير أعلام النبلاء :٣/ ٥٢

١- أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة بتحقيق الألباني :١/ ٧٣ ، قال الألباني إسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات .

٢- البخاري ، كتاب القدر ، باب ١ :٧/ ٢٦٧ رقم الحديث :٦٥٩٤

٣- الإيمان بالقضاء والقدر :٥٥

٦- التقدير اليومي : ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن﴾. (الرحمن : ٢٩) قيل في تفسيرها : (شأنه أن يعز ويذل ، ويرفع ويخفض ، ويعطي ويمنع ، ويغني ويفقر ، ويضحك ويبكي ، ويميت ويحي[1] إلى غير ذلك.

١- المرجع السابق : ٢٩.

المبحث العاشر

ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر

نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا لإظهار ملامح الوسطية في قضية الإيمان بالقضاء والقدر من خلال القرآن والسنة النبوية وأقوال العلماء حتى يكون المؤمن قد وضع نفسه على الصراط المستقيم والاستقامة على شرع الله في كل مسائله وأموره الدينية والدنيوية. ولا شك أن الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ بمفهوم أهل السنة والجماعة في قضية القضاء والقدر ليترتب عليه ثمار نافعة ومفيدة تعود على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة، فمن تلك الثمرات ما يلي:

١- أداء عبادة الله عز وجل : فالقدر مما تعبدنا الله سبحانه وتعالى بالإيمان به.

٢- الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك : فالمجوس زعموا أن النور خالق الخير ، والظلمة خالقة الشر ، والقدرية قالوا : إن الله لم يخلق أفعال العباد، فهم أثبتوا خالقين مع الله جل وعلا وهذا شرك ، والإيمان بالقدر على الوجه الصحيح توحيد لله.

٣- الشجاعة والإقدام : فالذي يؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت إلا إذا جاء أجله ، ولا يناله إلا ما كتب له ،فيقدم غير هياب ولا مبال بما يناله من الأذى والمصائب في سبيل الله. كما قال أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أي يومي من الموت أفــر   يوم لا يقدر أو يـوم قــدر

يوم ما قــدر لا أرهبــه   وإذ قدر لا ينجي الحذر[1]

٤- قوة الإيمان : فالذي يؤمن بالقدر يقوي إيمانه ، فلا يتخلى عنه ولا يتزعزع أويتضعضع مهما ناله في ذلك السبيل .

٥- الصبر والاحتساب ومواجهة الصعاب : فالذين لا يؤمنون بالقدر ربما يؤدي الجزع ببعضهم إلى أن يكفروا بالله ، وبعضهم يجن ، وبعضهم يصبح موسوساً ، وبعضهم يلجأ إلى المخدرات ، وبعضهم يقتل نفسه ، ولذلك يكثر الانتحار في البلاد التي لا يؤمن أهلها بالقدر كأمريكا ، والسويد، والنرويج، بل إن الأمر وصل بالسويد إلى أن يفتحوا مستشفيات للانتحار ، وأسباب ذلك ترجع لأمور تافهة ، فبعضهم ينتحر بسبب تخلي خطيبته عنه ، وبعضهم بسبب رسوبه في الامتحان وبعضهم بسبب وفاة المطرب الذي يحبه ، وقد يكون الانتحار جماعياً.

والعجيب في الأمر أن غالبية المنتحرين ليسوا من الفقراء ،بل هم من الطبقة الغنية ، بل ويقع الانتحار في الأطباء النفسيين الذين يظن أنهم يجلبون السعادة للناس.[2]

٦- الهداية كما قال تعالى : ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾. (التغابن : ١١).

٧- الكرم : فالذي يؤمن بالقدر ، وأن الفقر والغني بيد الله ، وأنه لا

١- ديوان الإمام علي : ٧٩- ٨٠ .

٢- الإيمان بالقضاء والقدر لمحمد إبراهيم الحمد : ٢٥

يفتقر إلا إذاقدرالله له ذلك - فإنه ينفق ولا يبالي -

٨- الإخلاص : فالذي يؤمن بالقدر لا يعمل لأجل الناس ، لعلمه أنهم لن ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له .

٩- إحسان الظن بالله وقوة الرجاء : فالمؤمن بالقدر حسن الظن بالله، قوي الرجاء به في كل أحواله .

١٠- الخوف والحذر من الله : فالمؤمن بالقدر على حذر من الله ، إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، فلا يغتر بعمله مهما كان كثيراً ، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها حيث يشاء والخواتيم علمها عند الله - عز وجل - .

١١- الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تفتك بالمجتمعات، وتزرع الأحقاد بينهما، وذلك مثل رذيلة الحسد ، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ؛ لإيمان منه بأن الله هو الذي رزقهم وقدر لهم ذلك ، فأعطى من شاء ومنع من شاء ابتلاءً وامتحاناً منه عز وجل وأنه حين يحسد غيره ، إنما يعترض على القدر[١] .

١٢- التوكل واليقين والاستسلام لله والإعتماد عليه كما قال تعالى : ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾. (التوبة :٥١)

١٣- عدم الاعتماد على الكهان والمنجمين والمشعوذين والتمسح بأتربة القبور ، ودعاء غير الله ، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ؛ لأنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً.

١- انظر : مجلة البحوث الإسلامية عدد ٣٤ : ٢٥٠ مبحث وسطية أهل السنة في القدر.

١٤ - التواضع : فالمؤمن بالقدر إذا رزقه الله بمال ، أو جاه ، أو علم، أوغير ذلك تواضع لله ، لعلمه أن هذا من الله ، ولوشاء الله لانتزعه منه ، وإنه على كل شيء قدير .

١٥ - ومن ثمرات الإيمان بالقدر : السلامة من الاعتراض على أحكام الله الشرعية ، وأقداره الكونية والتسليم لله في ذلك كله .

١٦ - ومن ثمراته : الجد والحزم في الأمور ، والحرص على كل خير ديني أو دنيوي كما في قوله عليه الصلاة والسلام - : «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وماشاء فعل» .[١]

١٧- الشكر : فالمؤمن بالقدر يعلم أن مابه من نعمة فمن الله وحده، وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونقمة ، فينبعث بسبب ذلك إلى شكر الله إذا هو المنعم المتفضل الذي قدر له ذلك وهو المستحق للشكر وهذا لا يعني ألا يشكر الناس.

١٨- الرضا : فيرضي بالله رباً مدبراً مشرعاً ، فتمتلىء نفسه بالرضا عن ربه فإذا رضي بالله أرضاه الله - عزوجل - «فالرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين».[٢]

١٩- يفرح المؤمن بالقدر بذلك الإيمان الذي حرم منه أمم كثيرة : ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾. (يونس : ٥٨).

١- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز : /٢٠٥٢ رقم :٢٦٦٤.

٢- جامع العلوم والحكم لابن رجب : ٤٧٦/٢ .

٢٠- الاستقامة على المنهج سواء في السراء والضراء : فالعباد فيهم قصور ، ونقص وضعف لا يستقيمون على منهج سواء إلا من آمن بالقدر ، فإن النعمة لا تبطره والمصيبة لا تقنطه.

٢١- عدم اليأس من انتصار الحق : فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العاقبة للمتقين وإن قدر الله في ذلك نافذ لا محالة ، فلا يدب اليأس إلى قلبه ، ولا يعرف إليه طريقاً مهما احلولكت ظلمة الباطل.

٢٢- علو الهمة ، وعدم الرضا بالدون ، وعدم الرضا بالواقع الأليم فالمؤمن بالقدر تجده عالي الهمة لا يرضى بالدون ولا بالواقع الأليم المر ، ولا يستسلم له محتجاً بالقدر ، إذ أن هذا ليس مجال الاحتجاج بالقدر ؛ لأنه من المصائب ، والاحتجاج بالقدر إنما يسوغ عند المصائب دون المعائب ، بل إن إيمانه بالقدر يحتم عليه أن يسعى سعياً حثيثاً لتغيير هذا الواقع حسب قدرته واستطاعته.[١]

٢٣- الإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف للإنسان حكمة الله عزوجل فيما يقدره من خير أو شر قال تعالى : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. (البقرة : ٢١٦).

وما أجمل قول الشاعر :

كم نعمة لا تستقل بشكرها   لله في طي المكاره كامنه[٢]

١- الإيمان بالقضاء والقدر : ٢٩.

٢- انظر : جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضي للغرناطي : ٣/٥٢.

وقول الآخر :

تجري الأمور على حكم القضاء وفي طي الحوادث محبوب ومكروه
وربما سرني ما كنت أحذره وربما ساءني ما كنت أرجوه[1]

٢٤- ومن ثمراته عزة النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين : فالمؤمن بالقدر يعلم أن رزقه مكتوب ، وأنه لن يموت حتى يستوفي رزقه، ويدرك أن الله كافيه وحسبه ورازقه ، وأن العباد مهما حاولوا إيصال الرزق له، أو منعه عنه فلن يستطيعوا إلا بشيء قد كتبه الله ، فينبعث بذلك إلى القناعة وعزة النفس، والإجمال في الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين، وقطع الطمع مما في أيديهم ، والتوجه بالقلب إلى رب العالمين ، وهذا أسس فلاحه ورأس نجاحه ، ومن جميل ما يذكر في هذا المعني ما ينسب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله :

أفادتني القناعة كل عز وهل عز أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعة
تحز ربحاً وتغنى عن بخيل وتنعم في الجنان بصبر ساعة[2]

٢٥- سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال : فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر ، وهي هدف منشود ، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها ، وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين ، والعباد القانتين المتبعين ، من سكون القلب ، وطمأنينة النفس ما

١- انظر : جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضي للغرناطي : ٣/ ٥٢ .
٢- ديوان الإمام علي : ١٢١- ١٢٢ .

لا يخطر على بال ، ولا يدور حول ما يشبهه خيال ، فلهم في ذلك الشأن القدح المعلى والنصيب الأوفى فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رضي لله عنه - يقول : (أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر).[١]

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : (إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الأخرة).[٢]

ويقول مقولته المشهورة التي قالها عندما اقتيد إلى السجن : (ما يصنع أعدائي بي ، أنا جنتي وبستاني في صدري ، أينما رحلت فهي معي لا تفارقني ، أنا حبسي خلوه ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة).[٣]

بل إنك تجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال ، وبرد اليقين ما لا تجده عند كبار الكتاب والمفكرين والاطباء من غير المسلمين فكم من الأطباء غير المسلمين علي سبيل المثال من يعجب ، ويذهب به العجب كل مذهب، وذلك إذا كان لديه مريض مسلم واكتشف أنه مصاب بداء خطير - كالسرطان مثلاً - فترى هذا الطبيب يحتار في كيفية إخبار هذا المريض ، ومصارحته بعلته، فتجده يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى ، وتجده يمهد الطريق ، ويضع المقدمات، كل ذلك خشية من ردة فعل المريض إزاء هذه الخير ، وما أن يعلمه بمرضه، ويخبره بعلته - إلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل هذا الخبر بنفس راضية، وصدر رحب، وسكينة وهدوء. لقد أدهش كثيراً من هؤلاء

١- جامع العلوم والحكم : ١/ ٢٨٧ سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم : ٩٧.

٢- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية لمرعي الحنبلي :٣٤

٣- شيخ الإسلم ابن تيميه جهاده ، ودعوته ، عقيدته أحمد القطان محمد الزين : ١٠١.

إيمان المسلمين بالقضاء والقدر فكتبوا في هذا الشأن، معبرين عن دهشتهم، مسجلين شهادتهم بقوة عزائم المسلمين ، وارتفاع معنوياتهم، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة.[1]

فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله وبقضائه وقدره :

ومليحة شهدت لها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

ومن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا في ذلك - الكاتب المشهور (ر.ن س بودلي) مؤلف كتابي (رياح على الصحراء) و (الرسول) وأربعة عشر كتاباً أخرى، والذي أورد رأيه (ديل كارنيجي) في كتابه (دع القلق وابدأ الحياة) في مقالة بعنوان (عشت في جنة الله) يقول بودلي : (في عام ١٩١٨م وليت ظهري العالم الذي عرفته طيلة حياتي ، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء ، وقضيت هنالك سبعة أعوام ، وأتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم ، واتخذ مظاهرهم في الحياة ، وغدوت مثلهم أمتلك أغنام، وأنام كما ينامون في الخيام ، وقد تعمقت في دراسة الإسلام، حتى إنني ألفت كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه (الرسول) ، وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي ، وأحفلها بالسلام ، والاطمئنان ، والرضا بالحياة وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق ، فهم بوصفهم مسلمين - يؤمنون بالقضاء والقدر ، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان ، وأخذ الحياة مأخذا سهلاً هيناً ، فهم لا يتعجلون أمراً ، ولا

١- إنظر . الايمان بالقضاء والقدر : (٣٢).

يلقون بأنفسهم بين براثين الهم قلقاً على أمر إنهم يؤمنون بأن (ماقدر يكون) وأن الفرد منهم (لن يصيبه إلا ما كتب الله له) وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيادي كلا)[1]

ثم أردف قائلاً : (ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه (هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال وادي (الرون) في فرنسا ، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة ، ولكن العرب لم يشكوا إطلاقاً ، فقد هزوا أكتافهم ، وقالوا كلمتهم المأثورة (قضاء مكتوب) لكنهم ما أن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدوا من أحدهم شكوى، قال رئيس القبيلة الشيخ : لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء، ولكن حمداً لله وشكراً، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ما شيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد)[2].

وثمة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوما ، فانفجرت إحدى الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضار إطار احتياطي ، وتولاني الغضب، وانتابني القلق والهم ، وسألت صاحبي من الأعراب : ماذا وعسى أن نفعل؟ فذكرني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً ، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا ، لكنها مالبثت أن كفت عن السير، وعلمت أن البنزين قد نفذ ، وهنالك أيضاً لم تثر ثائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم

٢- انظر : الايمان بالقضاء والقدر : (٣٢).

٣- دع القلق وابدأ الحياة ، ديل كارنيجي (٢٩٠، ٢٩١).

هدوؤهم ، بل مضوا يقطعون الطريق سيراً على الأقدام[1] .

وبعد أن استعرض بودلي تجربته مع عرب الصحراء علق بقوله : (قد أقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرحل - أن مرضى النفوس، والسكرين الذين تحفل بهم أمريكيا وأروبا - ماهم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً لها إنني لم أعان شيئاً من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة، والقناعة، والرضا[2] .

وأخيراً اختم كلامه بقوله : (وخلاصة القول أنني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء - مازلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدأت أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير[3] .

وبهذا نكون قد أوضحنا ملامح وسطية القرآن في باب الإعتقاد والله الهادي إلى سواء السبيل .

ونرجو من القارئ الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى الله كاتب هذه الأسطر بالدعاء في ظهر الغيب بالمغفرة والرحمة والشهادة في سبيل الله تعالى وأن يكرمه بالصدقة الجارية بعد وفاته إنه ولي ذلك والقادر عليه .

١- نفس المصدر السابق : ٢٩٠- ٢٩١.

٢-٣- نفس المصدر السابق : ٢٩١ - ٥ .

الخلاصة

١- إن القرآن الكريم كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية.

٢- إن سورة الفاتحة تقرر منهج الوسطية من أولها إلى آخرها ووضعت القاعدة والمنطلق ورسمت منهج الوسطية وحددت معالمه ثم جاءت الآيات بعد ذلك مقررة لذلك وداعية له.

٣- إن كلمة العقيدة في الاصطلاح: لم تكن موجودة في الكتاب والسنة، ولا في أمهات المعاجم، وأن أول من تم الوقوف على ذكره لجمعها (عقائد) هو القشيري سنة ٤٣٧.

٤- ومصطلح العقيدة يشمل التوحيد، والإيمان، والإسلام ، والغيبيات، والنبوات، والقدر والأخبار، وأصوله الأحكام القطعية، وسائر أصول الدين، والاعتقاد، ويتبعه الرد على أهل الأهواء والبدع وسائر الملل والنحل والمذاهب الضالة ومن مسميات علم العقائد، التوحيد، والسنة، وأصول الدين.

٥- إن العقيدة الصحيحة لاتوجد إلا في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لأنهما محفوظتان لحفظ الله لهما.

٦- إن معرفة حقيقة أسماء الله وصفاته وأفعاله من أهم العلوم التي يجب أن

يحرص على معرفتها العبد لأن هذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة.

٧- إن القرآن الكريم أشار إلى أسباب الإيمان وثمراته في كتاب الله تعالى حتى تتطلع القلوب وتشتاق النفوس إلى الأخذ بأسباب الإيمان وتحرص على ثمراته.

٨- إن الإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد، لايتم الإيمان إلا به، والملائكة من عوالم الغيب التي امتدح الله المؤمنين بها، تصديقاً لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله صلى الله عليه وسلم.

٩- إن من أركان الإيمان الاعتقاد بالكتب السماوية وإنها من عند الله سبحانه وتعالى، إلا أن البشر هناك من أنكر الكتب السماوية جملة وهم الملاحدة، وهناك من حرف الكتب السماوية وأضاف إليها مالم ينزل به من سلطان وهم اليهود والنصارى وقعوا في الغلو وفي الإفراط وابتعدوا عن الصراط المستقيم.

١٠- إن القرآن الكريم رسم لهذه الأمة الاستقامة فاستجابت لأمر الله ورسوله وآمنت برسل الله جميعاً وشهد الله لها بهذا الإيمان في محكم كتابه.

١١- إن القرآن الكريم والسنة النبوية مملوءة بذكر أحوال اليوم الآخر وتفاصيل مافيه وتقرير ذلك بالأخبار الصادقة والأمثال المضروبة للاعتبار والإرشاد.

١٢- من وسطية القرآن الكريم وحكمته وإرشاده إلى الصراط المستقيم بيانه مراتب القدر والتي تسمى عند العلماء بأركانه.

١٣- إن منهج أهل السنة في باب القدر وسط بين الإفراط والتفريط ويظهر ذلك في مسألة أفعال العباد وأنها مخلوقة لله عز وجل على الحقيقة، وهي فعل للعباد على الحقيقة وأنهم قادرون على أفعالهم بقدرة حقيقية مؤثرة في وقوع الفعل منهم والله هو الذي أقدرهم على ذلك.

١٤- إن مفهوم الإرادة في كتاب الله نوعان :

أ- إرادة شرعية دينية.

ب- إرادة قدرية كونية خلقية وفهمهما له أهمية عظيمة في استيعاب القضاء والقدر.

١٥- إن الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ بمفهوم أهل السنة والجماعة في قضية القضاء والقدر ليترتب عليه ثمار نافعة ومفيدة تعود على الافراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

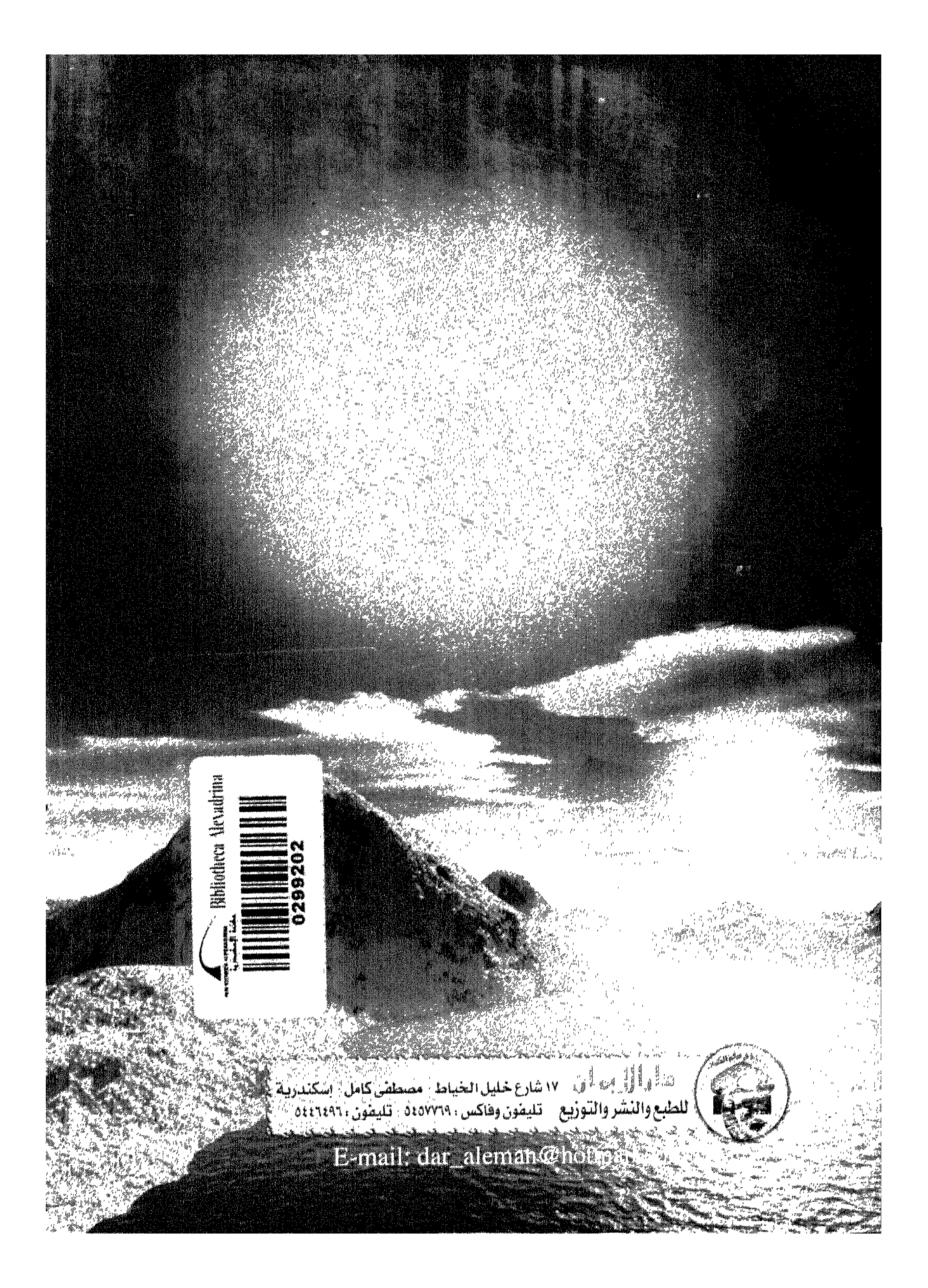


الفهرس

رقم الصفحة

من أحدث مطبوعات دار الإيمان




Bibliotheca Alexandrina
02899202
دار الإيمان
١٧ شارع خليل الخياط · مصطفى كامل · إسكندرية
للطبع والنشر والتوزيع تليفون وفاكس : ٥٤٥٧٧٦٩ · تليفون : ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail: dar_aleman@hot